الجزء الثانى

إذا كان موسى مصرياً...

✠ ✠ ✠

حاولت فى الجزء الأول من هذا الكتاب أن أدعم بحجة جديدة فكرة أن **الإنسان موسى، محرر الشعب اليهودى ومانحه الشريعة الموسوية، لم يكن يهودياً بل مصرياً.** ولقد لوحظ من زمن بعيد أن اسمه «موسى» مشتق من اللغة المصرية، ولو أنه شئ لم يُستسغ. ولقد أضفتُ إلى هذه الواقعة فكرة أخرى وهى أن أسطورة تعريضه للماء استلزمت أن نقول إن موسى كان مصرياً، ولكن الشعب اليهودى كان فى حاجة إلى أن يجعل منه يهوديا. وفى نهاية بحثى قلت إن من الممكن استخلاص نتائج هامة وبعيدة المدى من فكرة أن موسى كان مصرياً، ولكنى لم أكن مستعداً لإعلان هذه النتائج على الملأ، مادامت أنها نتائج تقوم على ممكنات نفسية ويعوزها الدليل الموضوعى. وكلما زادت أهمية هذه الممكنات المستخلصة، كلما زاد حذرى إزاء إعلانها على العالم وتعريضها للنقد دون أن يكون لها أساس مضمون - مثل النُّصب الذى يكون من الحديد ولكن أقدامه تكون من الطين. ولايوجد ممكن مهما كان إغراؤه، يمكن أن يحمينا من إتيان الخطأ، حتى ولو كانت كل أجزاء المشكلة تبدو متلائمة مع بعضها كقطع لغز الصور المقطّعة. وينبغى أن نتذكر أن الممكن ليس من الضرورى أن يكون هو الحقيقة، وأن الحقيقة ليس من الضرورى أن تكون دائما ممكنة. وأخيراً فليس من المستحب أن أدرج ضمن المدرسيين والتالموديين[1] الذين يرضيهم أن يمارسوا براعتهم دون أن يعبأوا بمدى ماقد تكون عليه نتائجهم من بُعد عن الحقيقة.

ورغم هذه الشكوك التى ترين على كاهلى اليوم، كما كانت فى الماضى، فإنه من بين

١- التالموديون نسبة إلى التالمود، وهو الكتاب الثانى فى الأهمية بالنسبة لليهود بعد التوراة. والتالمود كلمة عبرية معناها التعليم، فهو كتاب التعليم، وهو يضم التراث الذى وضعه أحبار اليهود الذين يسمون الربانيين تفسيراً لشريعة النبى موسى، وينقسم إلى قسمين : الميشنا، وهو التشريع الذى يستقى من التراث الشفاهى، والجيمارا، وهو التعليق على الميشنا. (الحفنى).

صراعات دوافعي خرج قراري بأن أتبع بحثي الأول بهذا البحث الجديد، ولكني أؤكد مرة أخرى أنه ليس إلا جزءاً من كل، وأنه ليس أهم جزء.

✠ ✠ ✠

-١-

فإذا كان موسى، إذن، مصريا[١] فإن أول نتيجة نستخلصها من هذه الفكرة هي بمثابة لغز جديد يصعب الإجابة عليه. وعندما يستعد شعب إحدى القبائل[٢] للقيام بعمل عظيم، فمن المتوقع أن يجعل أحد أفراد هذا الشعب من نفسه زعيماً له، أو أن يختاروه لهذا الدور. ولكن ليس من السهل أن نتكهن بما يمكن أن يغري مصرياً مرموقا ربما كان أميراً أو كاهناً أو موظفاً كبيراً، على أن يضع نفسه على رأس حشد من المهاجرين منحطي الثقافة، وعلى أن يترك بلده بصحبتهم. وإن ماهو معروف عن المصريين من احتقار للأغراب[٣] يجعل مثل هذا العمل من جانب موسى شيئا غير ممكن، وإني لأميل حقيقة إلى الظن بأن هذا هو السبب الذي حدا بالمؤرخين، وحتى بهؤلاء الذين أقروا بأن اسم موسى هو اسم مصري ونسبوا إليه كل حكمة مصر، إلى عدم الترحيب بفكرة أن موسى كان مصريا، حتى ولو كانت الفكرة ممكنة بشكل واضح.

وتتبع هذه العقبة الأولى عقبة ثانية، فنحن لاينبغي أن ننسى أن موسى لم يكن فقط الزعيم السياسي لليهود المقيمين في مصر، وإنما كان مُشَرِّعهم ومعلمهم والذي أجبرهم على اتخاذ ديانة جديدة مازالت تسمى حتى اليوم بالديانة الموسوية، نسبة إليه. ولكن هل من الممكن لشخص بمفرده أن يخلق ديانة جديدة بهذه السهولة؟ وعندما يرغب شخص ما

١- يرد فرويد نفسه على ادعائه بمصرية موسى فيقدم هذا السؤال الذي يتضمن إجابة سلبية، وهو نفسه لايستطيع أن يجيب على السؤال، ولكن تضمينه للسؤال هو تكتيك متبع ومألوف لإثارة الشك وبلبلة القراء والإيهام بإجابة معينة لايستطيع القارئ غير الواعي إزائها إلا التسليم ببعض مايثيره فرويد إن لم يكن كله. وهناك احتمال لايورده فرويد نفسه وهو أن يكون اسم موسى اسما مألوفا بين يهود مصر وبين المصريين أنفسهم كما نعرف ذلك من تاريخ اليهود في كل البلاد التي عاشوا فيها، أو أن يكون الاسم نفسه اسما سامياً شائعاً مشتركا في مصر القديمة وبين اليهود. (الحفني)

٢- ولانعني بقول قبيلة أي تلميح لعدد اليهود الذين خرجوا من مصر. (فرويد)

٣- وهي ملاحظة غريبة من فرويد لاأدري من أين أتى بها، إذ أن مصر كانت على مر التاريخ معبراً وملجأ لكل شعوب البحر الأبيض حتى لقد قرنها الله تعالى في القرآن الكريم بالأمن والأمان فقال وهو أصدق القائلين «ادخلوا مصر إن شاء الله آمنين» (يوسف ٩٩). (الحفني)

فى التأثير على ديانة شخص آخر، أليس أكثر الأشياء طبيعية هو دفعه إلى تغيير ديانته واتخاذ ديانة الشخص الأول؟ وكان الشعب اليهودى فى مصر يؤمن يقيناً بدين معين، وإذا كان موسى الذى أعطاهم ديانة جديدة مصريا، فالنتيجة المستخلصة من ذلك إذاً لايمكن أن تكون مرفوضة، وهى أن الديانة الجديدة كانت ديانة مصرية.

ويواجه هذا الاحتمال عقبة، وهى التعارض الحاد بين الديانة اليهودية المنسوبة إلى موسى وبين الديانات المصرية، فالديانة اليهودية ديانة موّحدة متزمتة متباهية، ولايوجد بها سوى إله واحد مفرد تام القدرة، لايدانيه أحد، ولايقوى على اجتلاء وجهه أحد، ولاينبغى لأحد أن يخط له صورة، أو حتى أن يلفظ اسمه. أما فى الديانات المصرية، فهناك من ناحية أخرى عدد مذهل من المعبودات تختلف أهمياتها وأصالتها، وبعضها تشخيص للقوى الطبيعية الكبرى، مثل السماء والأرض والشمس والقمر، ثم نجد تجريداً مثل «ماعت[1] Maat» (ويُقصد به العدالة والحقيقة)، أو مخلوقاً شائهاً مثل القزم Bes. ومعظم هذه الآلهة آلهة محلية من أيام تقسيم الأرض بين الأقاليم المختلفة، ولها أشكال الحيوانات، كما لو كانت لم تتغلب بعد على أصولها من أيام عبادة الحيوانات الطوطمية[2]. وليست هناك

١- يقول الدكتور عبد المنعم أبو بكر (كتاب أخناتون ص ٣٨) أن المصريين يقصدون من تعبير ماعت «الحقيقة، الصدق، العدالة»، وأن أخناتون كان يقول إنه يعيش على الماعت، ولذلك جعل اسمه «العائش على الماعت»، وسمى عاصمته الجديدة «مقر الماعت ...». (الحفنى).

٢- الطوطم هو حيوان أو نبات أو أى شئ آخر مقدس لدى جماعة أو قبيلة أو جنس من الشعوب البدائية ويرمز للجماعة ويحميها، وتعامله بطرق مختلفة طبقاً للعادة والتراث، وتدور حوله طقوسها الدينية وشرائعها؛ والطوطمية هى نظام القانون والعادات التى تدور حول الطوطم بوصفها قوانين وشرائع اجتماعية ودينية. والطوطمية أقدم ديانة عرفها تاريخ الإنسانية، وهى ليست عبادة الحيوان أو النبات، ولكن الطوطمية تختلف عن عبادة الحيوانات فى أن القبيلة التى تدين بالطموطمية ترى أنها والطوطم من أصل واحد، فمثلا القبيلة التى طوطمها المقدس هو الذئب، ترى أنها والذئب تنحدر من أب واحد. ومن أكبر الفلاسفة الذين كتبوا فى الطوطمية العلاّمة الفرنسى دور كايم. والاسم نفسه Totemism شائع فى اللغات الأوروبية كلها، ونجده فى اللغتين الفرنسية والإنجليزية، وأول من استخدمه مؤلف إنجليزى مغمور إسمه جون لونج Long، وكان يعمل ترجمانا فى شركة الهند، فى كتاب له بعنوان «أسفار ورحلات لترجمان هندى "Voyages and Travels of an Indian Interpreter" سنة ١٧٩١، وبعده توالت الكتب التى تستخدم هذا التعبير الذى أخذه فرويد ووضع عنه وعن مدلالوته كتابه «الطوطم والمحرم To-tem and Taboo. والجدير بالذكر أن أستاذنا الدكتور على عبد الواحد وافى يرى أن الترجمة الشائعة فى العربية للكلمة تكتب «الطوطمية»، مع أنها يجب أن تكتب «التوتمية»، كما يترجم الأستاذ الدكتور «التابو» بأنه نظام المحارم، أو نظام اللامساس الذى يحظر فيه على الأفراد قربان أو لمس أشياء معينة إلا فى ظروف خاصة وبطقوس مرسومة، وبعد اتخاذ كثير من وسائل الحيطة والحذر : (كتاب الطوطمية، سلسلة إقرأ - دار المعارف العدد ١٩٤). (الحفنى)

اختلافات فيما بينها، وتتميز عن بعضها البعض تمييزاً طفيفاً بالوظائف الخاصة التى تنسب إلى بعضها. وتحكى الأناشيد التى تتلى فى مدح هذه الآلهة نفس الشئ عن كل منها، وتماثل بين بعضها البعض دون أن يثير ذلك أية شكوك حولها، وبطريقة تبلبلنا بشكل يائس. وتترابط أسماء المعبودات ببعضها البعض لدرجة أن بعضها يدنو فى الدرجة، فيكنى باسم آخر، ولذلك نجد أنه فى أحسن فترة من حكم «الإمبراطورية الجديدة»[1] سمى الإله الأكبر لمدينة طيبة «أمون - رع»[2]، وهذا اسم تركيبى، الجزء الأول منه يعنى إله المدينة الذى له رأس كبش، أما اسم رع فهو إله الشمس الذى عبدته مدينة أون وله رأس صقر. وكانت التعاويذ والصيغ السحرية والطقوس تسيطر على صلوات هذه الآلهة، مثلما كانت تسيطر على الحياة اليومية للمصريين.

١- الإمبراطورية الجديدة بدأها الملك تحوتمس الثالث حوالى سنة ١٤٧٠ ق.م بعدد من الحملات فى آسيا، وكان هدف هذه الحملات موجهاً إلى مدينة قادش على نهر العاصى، وهى التى كانت تتزعم المعارضة على المصريين، وذلك أن المصريين بعد طرد الهكسوس من مصر وجدوا أن من واجبهم مطاردتهم مطاردة يمليها حب الانتقام الذى ظل ينمو فى نفوسهم لأكثر من قرن من الزمان. وكان لقادش معنى خاص لديهم، لأن على مقربة منها كان تل سفينة نوح وفيه عسكر الهكسوس، وعلى بعد ٣٥ ميلا فقط كانت توجد مدينة قطنا وفيها أكبر تلك المعسكرات جميعاً. ولايعنى ذلك أن مصر لم يكن لها إمبراطوريات من قبل، فقبل تحوتمس كان لمصر إمبراطورية إفريقية امتدت إلى النوبة والسودان أو بلاد كوش. (عن جون ولسون - الحضارة المصرية). (الحفنى)

٢- أمون رع أحد آلهة مصر القديمة، وسيد الكرنك، ومنافس أتون، وظهر كإله فى مصر بظهور الأسرة الطيبية، ومعنى أمون «المختفى»، وهو إله الهواء الذى لايُرى والذى يستطيع أن يكون فى كل مكان، ولهذا سهل على هذا الإله أن يكون إلهاً للإمبراطورية الجديدة، وكان إلهاً عالميا عندما ذهب إلى الخارج عند اتساع الإمبراطورية، وتشامخ معبده إلى جانب قصر فرعون، وتنافس كبير كهنته على السلطة مع قائد الجيش والوزير، وفى الختام مع الملك نفسه. وأمون رع هو إله من آلهة الشمس، ومصر عرفت عبادة الشمس منذ الأزل، وكان للشمس مظاهر متعددة كان كل منها إلهاً مستقلا، وأصبح رع إله هليوبولس هو إله الشمس الذى غطّى على ماعداه، فاستحوذ على السلطة فى هليوبولس من أتوم الإله الخالق الذى وجد نفسه مع الإله الجديد وصار يسمى «رع أتوم». وظل كل من أمون ورع إلهاً مستقلا، أحدهما للهواء والآخر للشمس، بالرغم من أنهما اتحدا تحت اسم أمون رع الذى أصبح الإله الأعظم للأمومة، ولم ينافسه على السلطة إلا ديانة أتون التوحيدية، وليلاحظ أن أمون كان إلهاً توحيدياً كذلك، ففى البردية المعروفة باسم بردية بولاق ١٧ التى ترجع إلى عصر ماقبل الأسرة ١٨ يذكر اسم أمون بأنه «الواحد المنفرد الذى لاكفء له». (الحفنى)

وربما كانت بعض هذه الاختلافات نابعة من التعارض فى المبدأ بين الوحدانية الصارمة وبين تعدد الآلهة تعدداً لانهائياً، وبعضها الآخر نتائج لاختلاف فى المستوى الفكرى، فديانة قد تقرب جداً من الديانات البدائية، وديانة أخرى قد تحلق فى سوامق التجريد المتسامى. وربما كانت هاتان السمتان هما اللتان تعطيان أحياناً الإحساس بأن التعارض بين الديانة الموسوية وبين الديانة المصرية هو تعارض مقصود واستُهدف إبرازه، فمثلاً عندما تَنْهَى الموسوية عن إتيان أى نوع من أعمال السحر والشعوذة، فذلك لأن الديانة المصرية تبيحها ويروج فيها السحر رواجاً عظيماً؛ أو عندما يقابل الرغبة النهمة لدى المصرى فى أن يصنع تماثيل لآلهته من الصلصال والحجر والمعادن، هذه الرغبة التى تدين لها متاحفنا كثيراً، يقابلها فى الموسوية النهى نهياً مطلقاً عن تصوير أى كائن حىّ أو متخيل.

ويتبقى اختلاف آخر بين الديانتين لم تمسسه التفسيرات التى تقدّمت، فلم يوجد شعب آخر من الشعوب القديمة، كالشعب المصرى، بذل كثيراً لينكر الموت، وأعَدّ أيما إعداد لحياة بعد الحياة، واتفاقاً مع هذا فإن إله الموت «أوزيريس»[1]، حاكم هذا العالم الآخر، كان أكثر الآلهة المصرية جميعها شعبية[2] وأصالة لاجدال فيهما.

١- أوزيريس : كانت فى مصر القديمة نظريتان دينيتان، أحداهما مضمونها عبادة إله الشمس والديانات الأخرى المتفرعة منها، والثانية عبادة أوزيريس، وكان هناك نزاع بين النظريتين، ومن المحتمل أن هذا النزاع بدأ من أقدم العصور وظل مستمراً فيما بعد، ونرى أثر هذا النزاع فى التصادم بين الديانتين، بخصوص المتوفى، فالأولى تختص بعلاقة المتوفى بالشمس التى تغرب لتستريح ثم تشرق فى بهائها صبيحة اليوم التالى، والثانية هى علاقة المتوفى بالإله أوزيريس وهو إله للموتى لانعرف حقيقة أصله. وسواء أكان أوزيريس فى الأصل ملكا عاش وحكم بين الناس، ثم مات وأصبح ملكا للموتى وإلهاً للأرض التى يدفن فيها الموتى، أو أنه كان إلهاً للنيل ومات ثم ارتّد إلى الحياة، فإن ذلك أمر لايمكننا أن نعرفه على وجه اليقين. ولكن الذى نعرفه تماماً أنه عند بدء الأسرات أصبح هو الإله الذى مات ثم رد إلى الحياة ليكون الحاكم الميت والحاكم على الأموات. وعلى ذلك أصبح هو الملك المتوفى أوزيريس، كما أصبح ابنه الذى جلس على العرش الملك «حورس»، وهو الابن الذى يقوم بما يجب عليه نحو أبيه، والذى قام بعمل مايلزم ليظل أبوه حياً فى الحياة الأخرى. وعلى مر الأيام ازداد شأن ديانة أوزيريس وغطت على العقيدة القائلة بأن المتوفى يذهب فى صحبة الشمس، (جون ويلسون - الحضارة المصرية). (الحفنى)

٢- ويرى البعض أن النزاع بين الإله رع وبين الإله أوزيريس هو نزاع اجتماعى اقتصادى بين الطبقات، فالإله رع هو إله الملك والطبقة المالكة، والإله أوزيريس هو إله الشعب الفقير، والنزاع الطبقى فى مصر القديمة يصوره هذا التناقض بين إلهى كل جانب. ومع ذلك فإن ديانة أوزيريس ظهرت فى الأصل كديانة للملك، ولكن التطور فى مصر نحو الديمقراطية أكسب ديانة أوزيريس محبة فى نفوس الشعب، لأنها ضمنت السعادة المستقبلة لأكبر عدد من الشعب والانتقال إلى الحياة الأخرى ليصبح الناس فى صحبة الإله أوزيريس. أما ديانة رع فلم تكن تقول بالخلود إلا للملك وحده. فالملك هو الوحيد الذى له الحق فى الخلود فى الحياة الأخرى ومصاحبة الإله رع (الشمس) فى غدواته وروحاته. وفى الوقت الذى اتجهت فيه الأوزيريسية إلى الشعب، نرى الملكية ماتزال تفسرها نفس التفسير، فتقول إن الملك هو نفسه الوحيد الذى من حقه أن يصبح أوزيريس بعد الموت. (الحفنى)

أما الديانة اليهودية المبكرة فإنها عكس ذلك لم تتحدث عن الخلود إطلاقا، ولم يذكر فيها فى أى مكان إمكان وجود حياة بعد الموت، وهو أمر تزيد أهميته لأن التجربة التى تلت ذلك (أى الديانات الأخرى اللاحقة) قد أثبتت أن الاعتقاد فى وجود حياة أخرى بعد هذه الحياة يمكن أن يتوافق جداً مع الديانة التوحيدية.

وكنت آمل أن تبرهن الفكرة التى تقول بأن موسى كان مصرياً، أنها فكرة من شأنها أن تكشف وتنبه من نواحٍ مختلفة كثيرة، ولكن أول ماستخلصناه من هذه الفكرة - وهو أن الديانة الجديدة التى أعطاها موسى لليهود كانت ديانته هو، أى الديانة المصرية - قد تعثَّر فوق الاختلاف، بل التعارض البارز بين الديانتين.

✠ ✠ ✠

-٢-

تثير واقعة غريبة فى تاريخ الديانة المصرية - وهى واقعة اعترفوا بها وامتدحوها فى وقت متأخر نوعاً ما - وجهة نظر أخرى ماتزال ممكنة، وهى أن الديانة التى أعطاها موسى إلى الشعب اليهودى هى ديانته، أى ديانة من الديانات المصرية وليست كل الديانة المصرية[١].

ففى الأسرة الثامنة عشرة[٢] المجيدة، عندما صارت مصر لأول مرة دولة عالمية، ارتقى العرش فرعون شاب نحو سنة ١٣٧٥ ق.م، أسمى نفسه فى أول الأمر أمنحوتب الرابع مثل

١- نلاحظ أن فرويد دائم الخلط، فهو لايتصور ان يكون مصدر الديانات كلها هو الله، مع أن هناك مدرستين إحداهما ترجع الدين لله، والرسل وسطاء بينه وبين البشر، والأخرى وهى مدرسة إلحادية تعد الدين مظهراً فكريا لوجدان وتفكير الأمم، ولكن ينبغى أن نذكر دائماً أن ظاهرة الدين والتدين التى تفصح عن نفسها بهذا التكرار فى تاريخ البشرية، هى خير دليل على وجود مصدر خارج الإنسان هو الموحى بالدين، ومصدر داخل الإنسان هو متلقى الوحى به.. وليس تعاقب الديانات وظهورها بين شعوب شتّى إلا لاختلاف عصور التبشير بها، ثم بحسب الدرجة الحضارية التى بلغها الشعب المبشّر بالدين. (الحفنى)

٢- الأسرة الثامنة عشرة من ١٥٧٠ إلى ١٣٠٥ ق.م، وملوكها أحمس الأول (أحموسى) من ١٥٧٠ إلى ١٥٤٥، وأمنحوتب الأول من ١٥٤٥ إلى ١٥٢٥، وتحوتمس الأول (تحوتموسى) من ١٥٢٥ إلى ١٤٩٥، وتحوتمس الثانى من ١٤٩٥ إلى ١٤٩٠، وتحوتمس الثالث من ١٤٩٠ إلى ١٤٣٦، وحتشبسوت من ١٤٨٦ إلى ١٤٦٨، ومن ملوكها كذلك ملوك عصر الإمبراطورية، وهم أمنحوتب الثانى ١٤٣٩ - ١٤٠٦، وتحوتمس الرابع ١٤٠٦ - ١٣٩٨، وأمنحوتب الثالث ١٣٩٨ - ١٣٦١، وأمنحوتب الرابع (أخناتون) ١٣٦٩ - ١٣٥٣، وسمنخكارع ١٣٥٥ - ١٣٥٢، وتوت عنخ أتون (توت عنخ أمون) ١٣٥٢ - ١٣٤٤، وأيى ١٣٤٤ - ١٣٤٢، وحور محب ١٣٤٢ - ١٣٠٣. (الحفنى)

أبيه أمنحوتب الثالث[1]، ولكنه غيّر أسمه فيما بعد - وغيّر أشياء أخرى كذلك. وآل هذا الملك على نفسه أن يفرض على رعاياه ديانة جديدة تناقض تقاليدهم وكل مااعتادوه. وكانت ديانة توحيدية صارمة، وأول محاولة من نوعها فى تاريخ العالم على قدر مانعلم[2]. وولد بالتبعية مع الإيمان بإله واحد، التسامح الدينى الذى كان غريباً على العالم القديم قبل مجئ هذه الديانة التوحيدية، واستمر بعد مجيئها لزمن طويل. ولكن حكم أمنحوتب الرابع دام لسبع عشرة سنة فقط، وبعد وفاته سنة ١٣٥٨ ق.م مباشرة، وزالت الديانة الجديدة وصودرت ذكرى الملك الكافر. ونحن نستمد المعرفة القليلة التى نملكها عنه من آثار عاصمته الجديدة التى بناها ووهبها لإلهه، ومن الكتابات المحفورة على صخور مقابرها. وكل مايمكن أن نعلمه عن هذا الشخص العظيم والفريد حقيقة لجديرة بأعظم الأهمية[3].

إن كل شئ جديد لابد أن تكون له جذور فيما كان من قبل. ويمكن ببعض اليقين تتبع نشأة التوحيد المصرى إلى زمن بعيد بعض الشئ[4]. وفى مدرسة الكهنة فى معبد الشمس فى أون (هليوبوليس) كان الاتجاه لبعض الوقت يطور فكرة إله عالمى ويبرز نواحيه الأخلاقية. وكانت ماعت[5] Maat إلاهة الحق والنظام والعدالة، ابنة إله الشمس رع. وكانت

١- أمنحوتب الثالث وهو ابن تحوتموس الرابع من زوجته الأجنبية ابنة ارتاتاما ملك ميتانى، وكان هو وأبوه من المحاربين الفاتحين، وتزوج أمنحوتب الثالث زوجة مصرية من عامة الشعب وأنجب أمنحوتب الرابع، وتزوج أمنحوتب الرابع من أخته الرشيقة نفرتيتى وأشركه أبوه معه فى الحكم. وأنجب أمنحوتب الرابع ونفرتيتى ست بنات، واعتنق ديانة أتون، واحتفل وهو فى سنه الثلاثين بعيد ميلاده وميلاد ديانة آتون، الأمر الذى يدل على أن هذه الديانة كان عمرها وقتذاك ثلاثين سنة، وغيّر اسمه بعد وفاة أبيه من أمنحوتب، ويعنى أمون راض (عن هذا الشخص) إلى اسم أخناتون ومعناه إما «المفيد لأتون» أو «ليسعد أتون»، وقد اختفى أخناتون من مسرح الحكم بطريقة مشبوهة لانعرف تفاصيلها، وبعد خلاف حاد مع زوجته، وخلفه على الحكم أخوه الأصغر سمنخكارع. (الحفنى)

٢- يبدو أن فرويد قد نسى أن النبى يوسف كان فى مصر قبل موسى وقبل أخناتون وأنه كان يدعو لله الواحد. يقول القرآن «ذلكما مما علمنى ربى إنى تركت ملة قوم لايؤمنون بالله وهم بالآخرة كافرون، واتبعت ملة آبائى. ابراهيم وإسحق ويعقوب، ماكان لنا أن نشرك بالله من شئ، ذلك من فضل الله علينا وعلى الناس ولكن أكثر الناس لايشكرون. ياصاحبىّ السجن أرباب متفرقون خير أم الله الواحد القهار (يوسف ٣٩). ويؤكد القرآن الكريم أن التوحيد ظل بمصر بعد يوسف، فلما بشر موسى به وفرعون تصدى للمصريين رجل من آل فرعون يؤمن بالله وذكرهم برسالة النبى يوسف إليهم. يقول: «ولقد جاءكم يوسف من قبل بالبينات فمازلتم فى شك مما جاءكم به حتى إذا هلك قلتم لن يبعث الله من بعده رسولا» (غافر ٣٤) وإذن فقول فرويد "على قدر ما نعلم" إقرار بأنه لايعلم أن التوحيد رسالة الأنبياء منذ كانت النبوة، وكان فى مصر قبل أخناتون من بقايا دعوة النبى يوسف عليه السلام. (الحفنى)

٣- أسماه بريستيد «أول فرد فى التاريخ البشرى». (فرويد)

٤- إن ماأذكره هنا يترسم خطى كتابى بريستيد «تاريخ مصر» (١٩٠٦) و«فجر الضمير» (١٩٣٤)، والفصول المقابلة من المجلد الثانى من «التاريخ القديم» نشرة كمبردج. (فرويد)

٥- ماعت، أو الدعوة إلى ماعت، أى الحق، هى دعوة تختص بها ثورة العمارنة، وكان أخناتون صاحب الدعوة وإلهه أتون يعيشان على الحق. وكان شعار الدعوة إلى الثورة هو كلمة ماعت التى يجب أن نترجمها هنا إلى الحقيقة، بدلا من كلمة العدل أو الحق، فقد كانت الصراحة العائلية، واتباع الأسلوب الطبيعى فى الفن، وصبغ اللغة بالصبغة العامية، كانت كلها تطبيقا للحقيقة. ونعت أخناتون نفسه فى أسمائه الرسمية بأنه «الذى يعيش على الحقيقة»، كأنما هى الطعام الذى يمده بالحياة، وأصبح الاسم الرسمى للإله أتون هو «الراضى بالحقيقة». (الحفنى)

عبادة إله الشمس فى صعود منذ أمنحوتب الثالث الذى جاء قبل أمنحوتب الرابع وكان والده. ومن المحتمل أنها كانت تعارض عبادة آمون إله طيبة الذى أصبحت ديانته هى الديانة السائدة. واكتشف الملك من جديد أن إله الشمس كان له اسم قديم هو أتون[1] أو أتوم، ووجد الملك الشاب فى ديانة أتون حركة لم يكن هناك ثمة حاجة لخلقها، ولكنها كانت موجودة ويمكن أن ينضم إليها.

وكانت الظروف السياسية فى مصر نحو ذاك الوقت قد بدأت تفرض لنفسها نفوذاً دائماً على الديانة المصرية. وكانت مصر عن طريق سيف الفاتح العظيم تحتمس الثالث[2] قد صارت دولة عالمية، وأضيفت إلى الإمبراطورية المصرية النوبة فى الجنوب، وفلسطين وسوريا وجزءاً من بلاد مابين النهرين فى الشمال. وانعكست هذه الإمبريالية فى الديانة بحيث صارت عالمية وتوحيدية. ومادام نفوذ فرعون قد تجاوز الآن مصر إلى النوبة وسوريا فإن الفكرة الإلهية كان عليها أن تتخلى عن تحددها القومى، وكان على إله المصريين الجديد أن يصبح كفرعون - السيد الفريد غير المحدود - سيد العالم المعروف لدى المصريين. وعلاوة على ذلك فإنه كان من الطبيعى، أنه كما أن الحدود قد اتسعت، فإن

١- أتون أو أتوم تعنى قرص الشمس، ولم يكن القرص ذاته إلهاً، ولكن المصريين ألّهوه قبل أخناتون. وكان أمنحوتب الثالث والملكة تى يركبان سفينة فى بحيرة النزهة اسمها «أتون يضئ»، ويرجع تأليه أتون إلى عصر تحوتمس الرابع. وكان لأتون معبد فى طيبة، وكان الإله أتون على علاقة ودّية فى أول الأمر بالإله أمون، ثم بدأ النزاع بين كهنتيهما. وتوجد مفارقة لطيفة بين أمون وأتون، فمعنى اسم أمون المختبئ الذى لايُرى والقوة الشاملة لكل شئ بالرغم من أن اسمه المعروف كان على شكل إنسان، ويقع محرابه فى آخر المعبد وفى أكثر أشكاله ظلمة، وكان لايمكن الوصول إليه إلاّ بعد طقوس محددة. أما أتون فقد كان قرص الشمس ذاته الواضح للعيان الذى لايمكن حجبه عن أى إنسان، وكانت معابده مفتوحة للسماء حتى يمكن عبادته فى صراحة ووضوح. وكل صلة له بالشكل الإنسانى انحصرت فى أن الأشعة التى تتدلى من قرص الشمس تنتهى بأيدى تقدم العلامة الهيروغليفية للحياة إلى الملك وعائلته. ولاتذكر نصوص العمارنة اسم أى إله آخر سوى الإله أتون، فالأتونية أول ديانة توحيدية فى العالم. (الحفنى)

٢- تحوتمس الثالث كان صغيراً جداً عندما ولى الحكم بعد أبيه وأمضى السنوات الإحدى والعشرين من حكمه مغموراً، لأن عمته وزوجة أبيه حتشبسوت كانت امرأة قديرة فاغتصبت الحكم منه، ولكنه ظهر فجأة ولاأحد يدرى ماإذا كان قد دبّر اغتيالها، وتولى الحكم حوالى أول فبراير سنة ١٤٦٨ ق.م. وبعد ٧٥ يوما فقط جمع الجيش وسار نحو بلاد زاهى (فلسطين - سوريا) وهزم ملك قادش وأمير مجدو وأمير الميتانى، وبنى أسطولاً، وعبر الفرات، وطارد أمير الميتانى، وفرض الجزية على بلاد أشور. (الحفنى)

مصر كان يجب أن تتقبل النفوذ الأجنبى وكانت بعض زوجات الملك أميرات أسيويات، ومن المحتمل أيضا أن يكون التشجيع على التوحيد قد تسلل من سوريا.

ولم ينكر أمنحوتب تبعيته لديانة الشمس فى أون وهو يمتدح فى النشيدين الموجهين لأتون - واللذين حُفظا حتى عهدنا من خلال نقوش القبور الصخرية، واللذين من المحتمل أن يكونا من نظمه - يمتدح الشمس بوصفها الإله الخالق والحافظ لكل الأحياء داخل وخارج مصر، ويمتدحها بحمية كالتى تتكرر فقط بعد ذلك بقرون كثيرة فى المزامير التى تُنشد امتداحاً للإله اليهودى يهوا [1]. ولكنه لم يتوقف عند هذا السبق المدهش للمعرفة العلمية عن أثر ضوء الشمس، فالذى لاشك فيه أنه ذهب أبعد من ذلك، وأنه عبد الشمس

١- كتب كثير من المؤرخين مؤكدين الصلة بين الأتونية وبين الديانة اليهودية نتيجة لعناصر كثيرة منها مثلا **التشابه القريب فى التفكير والتكوين بين نشيد أخناتون للإله أتون وبين المزمور** ١٠٤ من مزامير داود، وقد اختار بريستيد ثلاث فقرات لتوضيح هذا التشابه الكبير، وقال بعض الباحثين إن هذه التعبيرات المتشابهة تدل على الاشتقاق وأن واضع المزامير العبرى كان يعرف نشيد الشمس:

نشيد أتون	المزمور ١٠٤
وعندما تغرب فى الأفق الغربى	تجعل ظلمةً فيصير ليلاً
وتظلم الأرض كالموت ...	. . . . .
ويخرج كل أسد من عرينه ..	فيه يدب كل حيوان الوعر،
وكل ما يزحف ويلدغ ..	الأشبال تزمجر لتخطف ...،
وعندما يطلع النهار، وتشرق الشمس فى الأفق ...	تشرق الشمس، فتجتمع وفى مأويها
تسوق الظلام بعيداً ...	تربض، .....
فيستيقظ الناس ويقفون على أقدامهم	فيستيقظ الإنسان ويخرج إلى عمله،
وجميع من فى الكون يعملون عملهم	وإلى شغله إلى المساء.
فما أكثر أعمالك !	فما أعظم أعمالك يارب!
وإنها لتَخَفَى عن نظر الإنسان	كلها بحكمةٍ صَنَعتَ!
أيها الإله الأوْحد، الذى لامثيل له !	ملأتَ الأرض من غناك!
لقد خلقت الأرض حسب مشيئتك !	

(الحضارة المصرية ترجمة الدكتور أحمد فخرى) (الحفنى)

ليس بوصفها موضوعا ماديا، ولكن كرمز لكائن إلهى تتكشف طاقته فى شعاعاتها[1]. ولكننا لانوفى الملك حقه إذا رأينا فيه أنه مجرد المؤمن بديانة أتون وحاميها، وهى الديانة التى كانت موجودة قبله. وأمنحوتب كان أكثر من ذلك، فهو قد أضاف صفة استبعادية، استبعدت كل الآلهة الأخرى. وتتأكد هذه الصفة فى كلمات كثيره فى أحد أناشيده :«أنت أيها الإله الواحد، لاإله إلا أنت[2]». ولايجب أن ننسى أنه لامتداح المذهب الجديد لايكفى معرفة محتواه الإيجابى فقط، فجانبه السلبى على نفس الأهمية تقريبا : أهمية أن نعرف ماينبذه.

ومن الخطأ كذلك الافتراض أن الديانة الجديدة ظهرت إلى الحياة مستعدة ومعدة تماماً، كما ظهرت أثينا من جبهة الإله زيوس. ويبدو أن كل شئ يشير بالأحرى إلى أن الديانة الجديدة قد تقوت خلال حكم أمنحوتب لكى تحقق لنفسها وضوحاً ومتانة وعتواً وتساميا. وربما يكون هذا التطور قد وقع تحت تأثير المعارضة العنيفة بين كهنة أمون الذين رفعت رءوسهم ضد إصلاحات الملك. وفى السنة السادسة من حكم أمنحوتب نما هذا العداء لدرجة أن الملك غيّر اسمه، وصار الآن اسم الإله أمون الحامى جزءاً منه، وبدلاً من أمنحوتب أسمى نفسه أخناتون[3]، ولم يحذف من اسمه فقط اسم الإله المكروه، ولكن حذفه من كل النقوش، وحتى حيثما وجده فى اسم أبيه أمنحوتب الثالث. وبعد تغيير اسمه غادر أخناتون طيبة التى كانت تحت حكم أمون وبنى عاصمة جديدة أسفل النهر، وأسماها أخيتاتون (أفق أتون). وتسمى آثارها الآن باسم تل العمارنة[4].

١- بريستيد «تاريخ مصر» ص ٣٦٠، (ولكن مهما قد يكون من الواضح أن الديانة الجديدة للدولة أصلها من هليوبوليس، فإنها لم تكن مجرد عبادة للشمس، فكلمة أتون استُخدمت فى محل الكلمة القديمة «نوتر Nuter» وتعنى الإله، وواضح أن الإله ليس هو الشمس المادية). «ومن الواضح أن ماكان الملك يؤلهه هو القوة التى جعلت بها الشمس نفسها محسوسة على الأرض»، (فجر الضمير ص ٢٧٩). ويرى إيرمان فى صيغة تمجيد الإله رأياً مشابها (ا. إيرمان : عن الديانة المصرية A. Erman Die Aegyptische Religion سنة ١٩٠٥) : «هناك .. كلمات يقصد منها التعبير فى شكل مجرد عن واقعة أن الكوكب نفسه لم يكن محل عبادة، ولكنه الكائن الذى يظهر ذاته فى الكواكب». (فرويد)

٢- بريستيد : تاريخ مصر، ص ٣٧٤. (فرويد)

٣- أكتبُ اسم أخناتون كما يكتبه بريستيد Ikhnaton، (ويُكتب أحيانا أخيناتون Akhenaton، ويعنى الاسم الجديد للملك نفس المعنى تقريبا للإسم السابق : «لقد رضى الله». قارن بذلك اسم جودفرى Godfrey الإنجليزى وجوتولد Gotthold الألمانى. (فرويد)

٤- فى هذا المكان عثر سنة ١٨٨٧ على المراسلات بين الملوك المصريين وأصدقائهم وأتباعهم فى آسيا، وهى مراسلات ثبتت أهميتها الكبرى لمعرفتنا بالتاريخ. (فرويد)

وكان اضطهاد الملك موجه أساساً إلى أمون، ولكن ليس ضده وحده، ففى كل أنحاء الإمبراطورية أغلقت المعابد ومنعت الصلوات وصودرت الممتلكات الخاصة بعبادة أمون. والواقع أن حماس الملك قد ذهب إلى أبعد من ذلك، حتى أنه أمر بالبحث فى النقوش فوق الآثار القديمة حتى يزال اسم الإله كلما جرى استخدامه فى صورة الجمع[1]. فلا عجب والحال هذا أن تثير هذه الأوامر رد فعل تعصبياً انتقامياً بين الكهنة الذين أُقصوُا وبين الشعب الغاضب، وهو رد الفعل الذى استطاع أن ينفّس عن نفسه بعد وفاة الملك، فديانة أتون لم تجد لها صدى بين الشعب، وربما كانت قد تحددت داخل نطاق دائرة صغيرة حول شخص الملك، ويحيط الغموض بنهاية حياته، ونحن نعلم عن خلفاء له عددهم قليل وعمرهم قصير من أسرته، واضطر بسرعة زوج ابنته المسمى توت - عنخ أمون[2] إلى العودة إلى طيبة وإحلال اسم الإله أمون محل اسم أتون، وأعقب ذلك فترة من الفوضى حتى نجح القائد حور محب سنة ١٣٥٠ قبل الميلاد فى استعادة النظام، وانطفأت الأسرة الثامنة عشرة المجيدة، وضاعت فى نفس الوقت فتوحاتها فى النوبة وآسيا. وفى تلك الفترة المحزنة التى أعقبت موت أخناتون عادت ديانات مصر القديمة إلى الظهور، وكانت ديانة أتون فى نهايتها، ودُمرت وسُلبت عاصمة أخناتون، واحتُقرت ذكراه كإنسان خبيث شرير.

١- تاريخ مصر : بريستيد، ص ٣٦٣. (فروید)

٢- توت - عنخ - أتون الابن الأصغر للملك العظيم أمنحوتب الثالث وشقيق الملكة نفرتيتى والملك أخناتون، ولكنه أخ غير شقيق، وعندما بدأ الملك أخناتون ينتهج طريقاً يصالح به كهنة أمون تمردت عليه نفرتيتى وسكنت قصراً بعيداً وظلت على مبادئ الثورة وأخذت معها أخاها توت - عنخ - أمون. ولم يقو أخناتون وأخوه سمنخكارع على تيار الثورة المضادة واختفيا من المسرح وتولى الملك توت - عنخ - أتون الشاب الصغير، وتزوج من بنت أخيه الثالثة الأميرة عنخس - ان - با - أتون، وسرعان ماخضع للتيار الرجعى وغير أسمه إلى توت عنخ أمون واسم زوجته إلى عنخس - ان - با - أمون، وترك العمارنة عائداً إلى طيبة. وانتهت الثورة الأخناتونية بالفشل، ولكن لوثة الإلحاد لم تمّح من البلاد، وقضى الملك الجديد ثمانى سنوات فى منتهى البذخ، ومقبرته مشهورة فى الآثار المصرية بالبذخ المسرف، وسرعان ماحدث انقلاب وتولّى قائد الجيش حور محب الملك فأعلن رسميا أن أفراد عائلة العمارنة ملحدون، واعتبره كهنة أمون أول ملك شرعى منذ وفاة الملك أمنحوتب الثالث، وبذلك ضعفت الثورة تماماً وانتصرت الرجعية ومحت كل أثر لعقيدة أتون وحرّمت ذكرى الفراعنة الملحدين أخناتون وسمنخكارع وتوت عنخ أمون وأيى، وبعد أن تم انتصار الرجعية أعادت سلطان الإله أمون - رع واستمر ذلك أربعة قرون. (الحفنى)

ولو لاحظنا الآن بعض السمات السلبية لديانة أتون فإن ذلك يخدم غرضاً لنا معيناً، ففى المقام الأول نلاحظ أن ديانة أتون تُستبعد منها كل أنواع الأساطير والسحر والشعوذة[١].

ثم هناك الطريقة التى مُثِّل بها إله الشمس : ليست كالطريقة التى كانت سائدة فى الأزمان المبكرة، بواسطة هرم صغير وصقر، ولكن - وهذا شئ يكاد يكون معقولا - بواسطة قرص مستدير تخرج منه شعاعات تنتهى بأيدٍ بشرية. وبرغم كل الحب للفن فى فترة العمارنة، فلم يوجد تمثيل مُشَخص واحد لإله الشمس أتون، أو أننا نستطيع أن نقول عن ثقة أنه لن يوجد[٢].

وأخيراً فهناك صمت تام حول أوزيريس إله الموت ومملكة الموتى. ولم تحتوِ الأناشيد ولاالنقوش على المقابر على أى شئ عما كان ربما أقرب الموضوعات إلى قلب المصرى. ولايمكن التعبير عن معارضة ديانة أتون للديانة الشعبية بأوضح من ذلك[٣].

✠ ✠ ✠

-٣-

إنى لأجازف الآن باستخراج النتيجة الآتية : إذا كان موسى مصرياً، وإذ كان قد نقل إلى اليهود ديانته هو نفسه، إذاً فقد كانت تلك الديانة هى ديانة أخناتون، أعنى ديانة أتون.

ولقد قارنت فى الفصول السابقة الديانة اليهودية بديانة الشعب المصرى، ونبهت إلى أنهما مختلفتان عن بعضهما. **والآن سنقارن الديانة اليهودية بديانة تون،**

١- يقول أرثر ويجال (حياة وعصر أخناتون Arthur Weigall : The life and Times of Akhnaton سنة ١٩٢٣ ص ١٢١) إن أخناتون لم يعترف بوجود جحيم يجد الإنسان نفسه إزاء أهواله مضطرا إلى اللجوء إلى تعاويذ سحرية لاعدد لها. (إن أخناتون ألقى بكل هذه الصيغ فى النار، وكنس الجن والأرواح الخبيثة والأرواح الطيبة والمسوخ وأنصاف الآلهة وأوزيريس نفسه بكل توابعه. كنسهم ملقياً بهم فى اللهب حتى تحولوا إلى رماد». (فرويد)

٢- ويجال، المرجع السابق ص ١٠٣ «لم يسمح أخناتون بصنع أى صورة محفورة لأتون. وقال الملك إن الإله الجديد لاشكل له، وظل على هذا الرأى طوال حياته». (فرويد)

٣- إيرمان، المرجع السابق ص ٩٠ «لم يُسمع المزيد عن أوزيريس ومملكة الموتى». ويقول بريستيد فى (فجر الضمير) (ص ٢٩١) : تجوهل أوزيريس تماما، ولم يعد يُذكر فى أى سجل لأخناتون أو على أى من قبور العمارنة». (فرويد)

وينبغى أن نتوقع أن نجد أنهمامتشابهتان أصلا. ونعرف أن هذه المهمة ليست بالمهمة السهلة. وقد لانعرف الكثير عن ديانة أتون، والفضل فى ذلك يرجع إلى الروح الانتقامية لكهنة أمون. ولم نعرف الديانة الموسوية إلا فى شكلها النهائى كما حدده لها الكهنة اليهود بعد النفى، أى بعد موسى بنحو ثمانمائة سنة. فإذا كنا سنجد، رغم هذه المادة غير المبشرة، بعض الإشارات التى تتوافق مع افتراضنا، فإن لنا أن نقيّمها حقاً تقويماً عالياً.

وهناك طريق قصير لإثبات مافترضناه من أن الديانة الموسوية ليست سوى ديانة أتون، ولكنى أخشى أن يقال لى أن مثل هذا الطريق متعذر، فالعقيدة اليهودية، كما هو معروف جيداً، تقول : Schema Jisroel Adonai Elohenu Adonai Echod». فإذا لم يكن الشبه بين اسم أتون المصرى (أو أتوم) وبين الكلمة العبرية أدوناى Adonai وبين اسم الإله السورى أدونيس Adonis[1] مجرد صدفة، ولكنه نتيجة وحدة بدائية فى اللغة والمعنى، فإننا نستطيع أن نترجم الصيغة اليهودية السابقة هكذا :«اسمعى ياإسرائيل، إن الهنا أتون (أدوناى) هو الإله الوحيد». وإنى للأسف غير مؤهل كلية لأن أحل هذا الإشكال، وكان فى مقدورى أن أعثر على أقل القليل من الحلول له فى الكتب المعنية[2]، ولكن ربما كان من الأوفق لنا ألا نيسر الأمور هكذا. وعلاوة على ذلك سنضطر إلى العودة إلى مشاكل الاسم الإلهى.

ومن السهل أن نتبين نقاط التشابه، وكذلك نقاط الاختلاف بين الديانتين، ولكنها لا تنيرنا كثيراً، فكلاهما شكل من التوحيد المتزمت، وسنميل إلى أن نرجع إلى هذه السمة الأساسية ماهو متشابه فى كل منهما. ولكن التوحيد اليهودى فى بعض نقاطه لايقل تزمتاً عن التوحيد المصرى - مثلا عندما يمنع كل تصوير مرئى للإله. على أن أهم الاختلافات الجوهرية - بصرف النظر عن الاختلاف فى اسم الإله - هو أن الديانة اليهودية تمسك تماماً عن عبادة الشمس التى استمرت الديانة المصرية فى مشايعتها. ولقد أحسسنا عند مقارنة الديانة اليهودية بالديانة الشعبية المصرية، أنه إلى جانب التعارض فى المبدأ، فإن هناك فى الاختلاف بين الديانتين عنصراً من التناقض المقصود، ويبدو أن إحساسنا ذاك له مايبرره عندما نستبدل فى مقارنتنا الديانة اليهودية بديانة أتون التى طورها أخناتون، كما نعرف، فى عداء متعمد للديانة الشائعة. وأدهشنا - وعن حق - أن **الديانة اليهودية**

١- أدونيس : المعبود الفينيقى فتى بيبلوس الجميل، جرحه خنزير برى، ومسخته عشتروت زهرة.(الحفنى)

٢- فقرات قليلة فقط من كتاب ويجال السابق الذكر ص ١٢، ١٩ حيث يقول : «ربما كان الإله أتوم الذى وصف رع بأنه الشمس الغاربة، من نفس أصل أتون الذى كان يُقدّس عموما فى شمال سوريا، وربما لذلك كانت كل ملكة أجنبية بالإضافة إلى حاشيتها تؤثر الإقامة فى هليوبوليس على طيبة». (فرويد)

لم تتحدث عن أى شئ بعد القبر، ومذهب هذا شأنه هو مذهب ينحو إلى التزام أدق أشكال التوحيد. ويختفى هذا الاندهاش إذا عدنا من الديانة اليهودية إلى ديانة أتون وتصورنا أن هذه السمة قد نقلت من الديانة الأخيرة، حيث كانت ضرورة من الضروريات بالنسبة لأخناتون فى محاربة الديانة الشائعة التى كان إله الموت أوزيريس يلعب فيها ربما دوراً أكبر من أى إله آخر من آلهة العوالم العليا. واتفاق الديانة اليهودية مع ديانة أتون فى هذه النقطة الهامة هو الحجة القوية الأولى المؤيدة لافتراضنا، وسنرى أنها ليست الحجة الوحيدة.

ولم يعط موسى اليهود ديناً جديداً فقط، وإنما من المؤكد كذلك أنه أدخل عادة الختان. ولهذه النقطة أهمية حاسمة فى مشكلتنا، ولم يحدث أن ناقشها أحد. والواقع أن التوراة ينقض هذه النقطة كثيراً، فهو من ناحية يرجع تاريخ عادة الختان إلى أيام زعماء القبائل، كعلامة للعهد بين الرب وبين إبراهام، ومن ناحية أخرى يذكر النص فى فقرة غامضة بشكل خاص أن الرب غضب من موسى لأنه أهمل هذا العرف المقدس، واقترح أن يذبحه كعقاب. ولكن زوجة موسى، وهى من أهل مَدْيَن، أنقذت زوجها من غضب الرب، بأن أجرت العملية بسرعة. وعلى أى حال فهذه تحريفات لاينبغى أن تضل سبيلنا، وسنكشف دوافعها حالا. ويتبقى فى الواقع أن السؤال المتعلق بأصل الختان له إجابة واحدة : أن مصدره مصر. ويقص علينا هيرودوت[1]، أبو التاريخ، أن عادة الختان كانت تمارس من زمن فى مصر، وتأيد قوله بفحص المومياوات، وكذلك بالرسومات على جدران المقابر. ولم يتبع شعب آخر من شعوب شرق البحر الأبيض، كما يصل إليه علمنا، هذه العادة. ونستطيع أن نقول عن يقين أن الساميين[2] والبابليين[3] والسومريين[4] لم يكونوا يختنون. والتوراة نفسها تقول مثل

١- هيرودوت المؤرخ الإغريقى المشهور ولد فى هاليكارناس نحو سنة ٤٨٤ ومات نحو سنة ٤٢٠ ق.م.، وعُرف بأسفاره الكثيرة، وقصّ علينا فى كتبه كل الأحداث والأساطير التى من شأنها أن أبرزت العالم القديم الذى كان يختلف عن عالم اليونان، والذى كان يطلق عليه العالم المتبربر، ومحيطه مصر وميديا وفارس، وهو القائل «مصر هبة النيل». (الحفنى)

٢- الساميون : نسبة إلى سام بن نوح، ويُطلق الاسم على القبائل البدوية التى كانت تسكن فلسطين وشبه الجزيرة العربية وبلاد مابين النهرين والأردن. واشتهر الاسم فى التاريخ المعاصر نسبة إلى العداء للسامية، على أن مصطلح العداء للسامية كان يقصد به أصلا العداء لليهود. (الحفنى)

٣- البابليون : نسبة إلى بابل، وهى مدينة تمت إلى الدنيا القديمة، ومانزال آثارها موجودة فى العراق على نهر الفرات على بعد ١٦٠ كيلومترا من العاصمة بغداد، بناها حمورابى العظيم مؤسس إمبراطورية بابل. ومن ملوك بابل نبوخذ ناصر الثانى الذى استولى على أورشليم سنة ٥٨٧ ق.م. وأسر اليهود وساقهم أمامه فى أعداد عظيمة إلى بابل. (الحفنى)

٤- السومريون : سكان سومر، إحدى الإمبراطوريات القديمة، فى الشرق الأوسط، وكانت لها حضارة ولغة، ولكنها درست باستيلاء بابل عليها سنة ٢١٠٥ ق.م. (الحفنى)

ذلك فيما يذكره من تواريخ عن سكان كنعان(١)؛ وهو مانفترضه فى قصة المغامرة التى وقعت بين ابنه يعقوب وأمير سيشيم(٢). واحتمال أن اليهود فى مصر قد اختاروا استخدام الختان فى أى أمر آخر سوى فيما يتعلق بالديانة التى أعطاهم إياها موسى، أمر يمكن رفضه كشئ لايذاد عنه. والآن ليكن فى بالنا **أن الختان كان يمارسه الشعب فى مصر بوصفه عادة عامة**، ولنوافق للحظة على الافتراض المعتاد الذى يقول بأن موسى كان يهوديا يريد أن يحرر بنى جنسه من استعباد سيد أعلى مصرى، وأن يسير بهم إلى خارج البلد، ليطوروا لأنفسهم وجوداً مستقلا تملأه الثقة بأنفسهم - وهو مطلب حققه فعلا. فأى مغزى يمكن أن يكون فى أن يفرض عليهم فى نفس الوقت ممارسة عادة ثقيلة حولتهم افتراضاً إلى مصريين، وكان من شأنها أن تبقى تذكرهم لمصر يقظاً فيهم، بينما ما كان من الممكن أن يكون هدفه إلا شيئاً آخر : وهو أن يحس شعبه بأنه قد صار غريباً على البلد الذى عرف عبوديته، وأن يتغلب على حنينه إلى «قدور لحم مصر»؟ لامغزى هناك، ومن ثم فالواقعة التى بدأت منها، والاقتراح الذى أضفته عليها، كلاهما متعارض مع الآخر بشدة، حتى أنى لأجرؤ على أن أخلص إلى النتيجة الآتية : **إذا كان موسى قد أعطى اليهود، ليس فقط ديناً جديداً، ولكنه أعطاهم كذلك شرعة الختان، فموسى ليس يهودياً، ولكنه مصرى، وإذن تكون الديانة الموسوية احتمالا ديانة مصرية : هى ديانة أتون** - بسبب معارضتها للديانة الشائعة - والتى تتفق معها الديانة اليهودية فى بعض نقاطها البارزة.

وكما لاحظت سابقاً، يخلق افتراض أن موسى لم يكن يهودياً بل مصرياً لغزاً جديداً، فما فعله ويمكن فهمه بسهولة إذا كان يهودياً، يصبح غير مفهوم من مصرى، ولكن إذا وضعنا موسى فى عهد أخناتون وضممناه إلى هذا الفرعون، لحُل اللغز، ولبرز دافع محتمل يجيب على كل أسئلتنا. **فلنفترض أن موسى كان نبيلا مرموقاً، وربما كان حقاً من أعضاء البيت المالك كما تقول الأسطورة، ولابد أنه كان على**

١- الكنعانيون : سكان فلسطين الأصليون، وهم قبائل ظهرت أولاً على ساحل الخليج العربى، ثم ارتحلوا إلى سوريا وفلسطين، وهم أعدى أعداء اليهود.

٢- عندما استخدم روايه التوراة بمثل هذه الطريقه الاستبدادية وأقيس عليها لأثبت ماأقول كلما تراءى لى ذلك، وأرفض شهادتها دون أيه شبهة عندما تتعارض مع نتائجى، أعرف جيداً أنى أعرض نفسى بهذا إلى النقد العنيف فيما يتعلق بمنهجى وأنى أضعف قوة براهينى. ولكن هذه هى الطريقة الوحيدة التى يمكن أن أعامل بها مادة قد أتلف الوثوق بها كما نعرف جيدا بفعل نفوذ الاتجاهات المشبوهه ونأمل أن يأتى التبرير فيما بعد نكون قد كشفنا عن تلك الدوافع السريه. وليس إلى اليقين فى أيه قضيه من سبيل. وعلاوة ذلك قد نقول إن كل المؤلفين الآخرين قد فعلوا مثلنا. (فرويد)

وعى بإمكانياته العظيمة، وكان طموحاً وجم النشاط، وربما رأى نفسه فى مستقبل مظلم كزعيم لشعبه وحاكم من حكام الإمبراطورية، وأنه كان من المؤمنين المتبعين للديانة الجديدة، بحكم صلته الوثيقة بفرعون، وأنه كان يفهم فهماً كاملا مبادئها الأساسية وجعلها مبادئه. وبموت الملك ومأعقب ذلك من رد فعل، رأى كل آماله ومشاريعه تُدمر. فإذا لم يكن فى وسعه أن يتنكر لمعتقداته العزيزة عليه الأثيرة عنده، فإن مصر إذن لن يكون لديها مايمكن أن تمنحه إياه أكثر من ذلك، فلقد فقد بلده الأم، وفى ساعة اليأس هذه عثر على حل غير عادى، فأخناتون الحالم جعل نفسه غريباً عن شعبه وترك عالم إمبراطوريته يتهاوى، ووضعت طبيعة موسى الإيجابية خطة لتأسيس إمبراطورية بديلة والعثور على شعب جديد يمكن أن يعطيه الديانة التى احتقرتها مصر. وكما نرى فهى محاولة بطولية أن يناضل ضد قدره، وأن يعثر فى اتجاهين على مايعوضه عن الخسائر التى مُنى بها من خلال كارثة أخناتون. وربما كان فى ذلك الوقت حاكماً لإقليم الحدود ذاك (المسمى جوسين Go-sen)[1] الذى – ربما فى «عهد الهكسوس»[2] استقرت به بعض القبائل السامية. وهؤلاء اختارهم ليكونوا شعبه الجديد. وكان ذلك قراراً تاريخياً[3]!

١- فى لغة مصر القديمة «جوشن» وفى التوراة «جاسان». (الحفنى)

٢- الهكسوس، أو الملوك الرعاة مشتق من كلمتى هيكا وكاس ومعناها الحاكم الأجنبى، والكلمة مصرية قديمة، والاسم ورد فى البردية المعروفة باسم بردية تورين، وهم بدو أسيويون استعمروا منطقة الشرقية من مصر وهدموا المعابد والمدن واستعبدوا الأهالى وحكموا من منف وكوّنوا الأسرة الخامسة عشرة. ويدّعى المؤرخ اليهودى المخادع يوسيفوس أن الهكسوس هم العبرانيون، ولكن نقوش الملكة حتشبسوت تقول غير ذلك، وتحكى أن مصر حكمها فى يوم من الأيام أجانب من آسيا لم يكونوا يعبدون رع، ولكن كانوا يعبدون الإله ست وعاصمتهم أفاديس، ولكن «كاموس» المصرى ثار عليهم وحرّر مصر منهم وطاردهم أحمس حتى فلسطين، ومن بعدها لم تقم لهم قائمة بعد أن استمروا يحكمون مصر ١٠٨ سنة.(الحفنى)

٣- إذا كان موسى موظفاً من الموظفين المصريين الكبار فبوسعنا أن نفهم أنه مناسب لدور الزعيم الذى لعبه مع اليهود؛ وإذا كان كاهناً فإن فكرة إعطاء شعبه ديناً جديداً لابد كانت فكرة قريبة من قلبه، وفى كلا الحالتين كان موسى سيستمر فى مهنته السابقة، ولكن أميراً من أصل ملكى يمكن أن يكون الاثنين معاً بسهولة : الحاكم والكاهن. وفى تقرير فلافيوس يوسيفوس (الآثار اليهودية) الذى يقبل أسطورة تمريضه للماء، ولكن يبدو أنه يعرف روايات أخرى خلاف رواية التوراة، يظهر كقائد مصرى يقود حملة منتصرة فى أثيوبيا. (فرويد)

ولقد أقام علاقات مع هذه القبائل السامية ووضع نفسه على رأسهم وقاد الخروج «بقوة الذراع»، ويمكن افتراض أن هذا الخروج قد تم بطريقة مخالفة تماماً لرواية التوراة، أى أنه تمّ فى سلام ودون أن يكون هناك من تبعه فيه. وجعلت سلطة موسى الخروج ممكنا، ولم تكن هناك قوة مركزية يمكن أن تمنعه.

وطبقاً لنظريتنا فإن الخروج من مصر قد تمّ بين سنتى ١٣٥٨ و١٣٥٠ ق.م، أى بعد موت أخناتون، وقبل استعادة حارمحب[1] لسلطة الدولة. ولايمكن أن يكون مقصود الارتحال عن أرض مصر إلا أرض كنعان، فبعد انهيار سيادة مصر اجتاحت البلد جحافل الأراميين، يخضعون وينهبون، وهكذا أبانوا كيف يمكن لشعب أوتى القدرة أن يستولى على أراض جديدة. ونعرف هؤلاء المحاربين من الرسائل التى وجدت سنة ١٨٨٧ فى أرشيف أطلال مدينة العمارنة، ويطلق عليهم فيها اسم عابيرو Habiru، وانتقل الاسم - ولا أحد يعرف كيف - إلى الغزاة اليهود، العبرانيين (Hebrews) الذين وفدوا فيما بعد، ولم يكن من الممكن أن يشار إليهم فى رسائل العمارنة.

وكانت القبائل، التى كانت أقرب القبائل تقريباً إلى اليهود النازحين عن مصر وقتها، تعيش كذلك جنوبّى فلسطين - فى أرض كنعان.

والدافع الذى تصورناه بشكل عام كسبب للخروج ينسحب كذلك على الأخذ بالختان. ونعرف بأية طريقة تنفعل الكائنات الإنسانية - كل من الشعوب والأفراد - تجاه هذه العادة القديمة التى لم تعد مفهومة تقريبا. ومن لايمارسونها ينظرون إليها كعادة غريبة جداً ويجدونها منفرة نوعا؛ ولكن أولئك الذين اختاروا الختان يفخرون به، ويحسون

١- ومعنى ذلك تاريخاً مبكراً بنحو قرن عما يفترضه معظم المؤرخين، الذين يفترضون أن ذلك حدث فى الأسرة التاسعة عشرة فى عهد مرنبتاح، أو ربما أقّل من ذلك بقليل، لأنه يبدو أن السجلات الرسمية تشتمل على فترة حكم حارمحب التى تخللت اعتلاء ملكين للعرش. (فرويد)

حارمحب : أو حورمحب، قائد جيش مصر فى الفترة التى أعقبت الثورة على الملك أخناتون، وقد أعاد الأمن إلى ربوع البلاد بقوة السلاح، وبه تتأكد قوة الرجعية وانتصارها على الجديد الذى أتى به أخناتون، وقد أعلن فى بداية حكمه أن أعضاء أسرة العمارنة ملحدون، واعتُبر أول ملك شرعى بعد موت أمنحوتب الثالث، وهو الملك الذى محا كل أثر لعقيدة أتون، وحرّم ذكرى الفراعنة الملحدين. (الحفنى)

مرنبتاح : هو الابن الثالث عشر لرمسيس الثانى، وتغنّى شعراء مصر أيامه بانتصاراته، ولأول مرة يأتى ذكر كلمة إسرائيل فى نص مصرى فى اللوح الذى اكتُشف وأُطلق عليه اسمه والذى يشيد بتخريب المَلك لإسرائيل. (الحفنى)

بأنفسهم أسمى من غيرهم، وأنهم شُرِّفوا، وينظرون باحتقار إلى الآخرين، الذين يبدون لهم غير مطَهرين. وحتى اليوم يسب المسلم المسيحى ويناديه :«كلب لم يختن»(١). والمصدق أن موسى، وكان هو نفسه مختونا بوصفه مصريا، وكان له نفس الرأى. وكان على اليهود الذين برفقتهم غادر موسى بلده أن يكونوا بديلا أفضل من المصريين الذين خلّفهم وراءه، وما كان يجب أن يكونوا أدنى منهم تحت أى ظرف من الظروف. وكان يتمنى أن يجعل منهم «أمة مقدسة» - فهكذا قيل تحديداً فى نص التوراة - وكعلامة لتقيدهم بالنَذْر فقد أخذهم بالعادة التى جعلتهم على الأقل مساويين للمصريين. وأكثر من ذلك أنه كان يحب لهم لو أن مثل هذه العادة عزلتهم ومنعتهم من الاختلاط بالشعوب الأجنبية الأخرى التى سيلتقون بها خلال ترحالهم، مثلما ابتعد المصريون عن كل الأجانب(٢).

١- هذا مايقوله فرويد، ولكننا فى بلاد إسلامية، ولم يحدث أن قلنا ذلك لأحد من المسيحيين، وإخواننا المسيحيون أنفسهم شهود على ذلك، ولعل القارئ يلحظ أن كثيراً مما يكتبه فرويد من مثل هذه الملحوظات المتعسفة لاسند له من الواقع. ولست أدرى من أين يأتى بهذا الكلام الغريب، فطوال عمرى، وكمسلم، لم أسمع نفسى ولا أحداً من شعبى ولا من الشعوب العربية، على قدر ماسافرت، يقول مثل هذا الكلام. وقد عثرت على مثل هذا الكلام فى إنجيل برنابا حيث يقول يسوع لتلاميذه فى الفصل الثانى والعشرين : الحق أقول لكم إن الكلب أفضل من رجل غير مختون (الآيه ٢). (الحفنى)

٢- يذكر هيرودوت الذى زار مصر نحو سنة ٤٥٠ ق.م فى وصفه لأسفاره سمة للمصريين تظهر تشابهاً مذهلاً مع الملامح المعروفة عن الشعب اليهودى الأكثر حداثة. «أنهم فى كل النواحى اكثر تديناً من غيرهم من الشعوب، ويتميزون كذلك عنهم بكثير من عاداتهم، مثل الختان، الذى أخذوا به قبل غيرهم لأسباب تتعلق بالنظافة؛ ثم باشمئزازهم من الخنازير، ولاشك أن ذلك راجع إلى اعتقادهم أن الإله ست قد أصاب حورس عندما كان متخفياً فى شكل خنزير أسود؛ وأخيراً ويتميز أكثر بتقديسهم للبقر الذى لايأكلونه أبداً ولا يضحون به، لأنهم بذلك سيغضبون إيزيس ذات القرون. ومن ثم فإن المصرى سواء كان رجلا أو امرأة، لايجرؤ على تقبيل اليونانى، أو على استخدام سكينته أو سيخه أو وعائه الطبخ، أو على تناول لحم ثور نظيف لو كان قد استخدم فى قطع هذا اللحم سكيناً يملكه يونانى .... وفى ضيق مترفع نظروا إلى الشعوب الأخرى التى كانت غير نظيفة، والتى لم تكن قريبة من الآلهة». (عن إيرمان : عن الديانة المصرية ص ١٨١ (Erman : Die Aegyptische Religion). ولاننسى هنا طبعا مايشابه ذلك فى حياة الهند. ونتساءل استطراداً فى الكلام، وماالذى أعطى الشاعر اليهودى هاينىHeine فى القرن التاسع عشر فكرة الشكوى من ديانته بوصفها «الوباء القادم من وادى النيل، والمعتقدات المريضة لقدماء المصريين»؟ (فرويد)

وحورس الذى يذكره فرويد هو إله مصرى ابن الإله أوزيريس من الإلاهة إيزيس، وكان ست أخو أوزيريس قد قتل أوزيريس، ومن ثم خرج حورس ليتسلم عرش أبيه ويدافع عنه ضد ست، وانتصرت إيزيس لابنها، وظل الصراع حاداً بين حورس الطفل الإلهى وبين ست، وتدخلت إيزيس وانتصرت الآلهة لحورس وأعطوه وظيفة أبيه ملكاً على طيبة، أما ست فانضم إلى مجمع الآلهة باختياره. وقصة الصراع بين ست وحورس مدونة على بردية تسمى بردية تشستر بيتى. (الحفنى)

وهاينى الذى يذكره فرويد كان شاعرا ألمانيا يهودياً، ولد فى دسلدورف ومات فى باريس (١٧٩٧-١٨٥٦) وعرف بشعره الساخر المتشائم، وله قصائد ولوحات حول سفرياته كتبها بالفرنسية وبالألمانية. (الحفنى)

ومع ذلك فقد سارت الرواية اليهودية فيما بعد كما لو كانت قد ضايقتها نتيجة الأفكار التى انتهينا إلى الكشف عنها تواً، فالموافقة على أن الختان عادة مصرية أدخلها موسى يعنى تقريباً الاعتراف بأن **الديانة التى نقلها إليهم موسى كانت مصرية كذلك**. ولكن لليهود حججاً قوية يدحضون بها هذه الواقعة، ولذلك فإن الحقيقة حول الختان كان لابد من نقضها كذلك.

✠ ✠ ✠

-٤-

وعند هذه النقطة أتوقع أن أسمع عتاباً بأنى قد بينت نظريتى - **التى تضع موسى المصرى فى عهد أخناتون**، واستمددت من الوضع السياسى للبلد الذى كان فيه فى ذاك الوقت قراره بحماية الشعب اليهودى، وسلّمت بأن **ديانة أتون هى الديانة التى أعطاها لشعبه**، أو أنها الديانة التى أثقلهم بها، والتى كانت قد أبطلت من مصر نفسها تواً - وعند هذه النقطة أتوقع أن أسمع عتاباً بأنى قد بنيت هذا الصرح من التخمينات بيقين عظيم، لاتوجد أسس كافية فى المادة نفسها تبرهن عليه. وأظن أن هذا العتاب لن يكون له مايبرره، فلقد سبق لى فى المقدمة أن أكدت عنصر الشك، ووضعت علامة استفهام أمام الأقواس، كما تراءى لى، ويمكن لذلك أن أجنب نفسى مشقة تكراره عند كل نقطة داخل الأقواس.

وقد تواصل بعض من ملحوظاتى النقدية المناقشة، فجوهر بحثنا، وهو اعتماد التوحيد اليهودى على حادثة التوحيد فى التاريخ المصرى، قد خمّنها وألمح إليها عدد من الباحثين. ولست فى حاجة إلى الاستشهاد بأقوالهم هنا، حيث أنه لم يحدث أن استطاع أحدهم أن يقول لنا عن الوسائل التى تحقق بها هذا التأثير. وحتى إذا ارتبط هذا النفوذ بفردية موسى، كما أرتئى، فلابد لنا أن نزن الاحتمالات الأخرى ولانقتصر على الاحتمال الذى اخترناه هنا. ولايجب أن نفترض أن انهزام ديانة أتون قد أنهى تماماً الاتجاه التوحيدى من مصر، فقد تحملت الكارثة مدرسة الكهنة فى أون، وهى المدرسة التى قامت على ذاك الاتجاه، وربما كانت قد شدت أجيالاً بأكملها بعد أخناتون إلى مدار فكرها الدينى. ومن الجائز جداً لذلك، فكريا، أن يكون موسى قد أتمّ العمل، وحتى ولو كان مجرد تابع لمدرسة أون أو مجرد عضو فيها. ويؤخر هذا التخمين تاريخ الخروج ويقرّبه إلى الزمن المفترض

عادة، وهو القرن الثالث عشر قبل الميلاد، وإلا فليس هناك مايزكّيه، وعلينا أن ننبذ الفراسة التى اكتسبناها ونحن ننفذ داخل أهداف موسى، وأن نلقى بعيداً بفكرة أن الخروج قد سهّلته الفوضى التى سادت مصر، فقد حكم البلد ملوك الأسرة التاسعة عشرة الذين جاءوا بعد أخناتون، وحكموها بيد قوية. ولاتتوافق كل الظروف، الداخلية والخارجية، التى يسرت الخروج منها فى الفترة التى أعقبت مباشرة موت الملك الضال.

ولليهود أدب دينى غنى إضافى علاوة على التوراة، توجد به الأساطير والخرافات التى نُسجت عبر القرون حول صورة زعيمهم الأول الضخمة ومؤسس ديانتهم، والتى توجت ذاته وجعلتها غامضة فى نفس الوقت. وقد توجد مبعثرة فى تلك المادة بعض النتف المأثورة شرعاً، والتى لم تجد مكانا فى أسفار موسى الخمسة. وتصف إحدى هذه الأساطير بطريقة جذّابة كيف أبان طموح الإنسان موسى عن نفسه فى طفولته، فعندما أخذه فرعون بين ذراعيه ورفعه مداعباً إلى أعلى، خطف الطفل ابن الثلاث سنوات التاج من فوق رأس فرعون، ووضعه على رأسه هو. وانزعج الملك لذاك النذير، وحرص على استشارة أهل الحكمة عنده[1] ... ثم يقال لنا مرة أخرى عن بطولات منتصرة خاضها بوصفه ضابطاً مصرياً فى الحبشة، وأنه، فيما يتعلق بذلك أيضا اضطر إلى الهرب من البلد، لأنه كانت له أسبابه للخوف من حسد نفر من رجال البلاط، أو حتى من فرعون نفسه. وتضفى قصة التوراة نفسها سمات معينة على موسى، يميل الواحد إلى تصديقها. وهى تصفه كإنسان غضوب حاد الطبع - مثلما فى حمأته يقتل ملاحظ العمال الفظ الذى أساء معاملة عامل يهودى، أو مثلما، فى استيائه من مروق شعبه، يحطم الألواح التى أعطاها له الله فوق جبل سيناء. والواقع أن الله عاقبه أخيراً لعمل ارتكبه عن غير صبر - لم يقل لنا ماذا كان. وطالما أن سمة كتلك ليست من السمات المحمودة، فقد تكون فعلا حقيقة تاريخية. ولسنا نرفض بالمثل أن كثيراً من سمات اليهود التى أُدمجت فى تصورهم المبكر للإله، عندما جعلوه غيورا ومتجهما ولايسهل إرضاؤه، قد استمدوها أصلاً من ذكراهم لموسى، لأنه فى الحقيقة لم يكن الإله غير المرئى هو الذى قادهم خارج مصر، بل كان هو الإنسان موسى.

وتستحق سمة أخرى تنسب إليه أن تنال منا اهتماما خاصا، فيقال إن موسى كان «بطيئا فى الكلام»[2] - وهذا يعنى أنه كان مصاباً بعائق يعوقه عن النطق السليم أو بمنعه

١- توجد نفس الحكاية مع تغيير طفيف لدى يوسيفوس. (فرويد)

٢- يقول القرآن :«واحللْ عقدةً من لسانى يفقهوا قولى»، سورة طه، الآية ٢٨. ويقول سفر الخروج «بل أنا ثقيل الفم واللسان»، الإصحاح الرابع. (الحفنى)

منه – ولذلك اضطر أن يستعين بهارون (الذى يسمى أخاه) ليعاونه فى مناقشاته المفروضة مع فرعون. وتلك أيضاً قد تكون حقيقة تاريخية، ويمكن أن نضيفها عن رضا إلى محاولة جعل صورة الإنسان العظيم حيّة. وربما كان لها مع ذلك معنى آخر وأكثر أهمية. وقد تستحضر القصة واقعة أن موسى كان يتحدث لغة أخرى، ولم يكن يستطيع أن يتفاهم مع مصريّيه الجدد الساميين دون مساعدة مترجم – على الأقل ليس فى بداية اتصالهما. ومن ثم يكون التأكيد الجديد لافتراض : **أن موسى كان مصرياً**.

ويبدو الآن كما لو كان قطار الفكر قد بلغ منتهاه، على الأقل الآن. ومن افتراض أن موسى كان مصرياً، سواء أثبت ذلك أم لم يثبت، لايمكن استخلاص شئ أكثر من ذلك الآن. وليس بوسع أى مؤرخ أن ينظر إلى القصة التى يرويها التوراة عن موسى والخروج، بأكثر من أنها أسطورة دينية، قلبت إحدى الروايات البعيدة لمصلحة اتجاهاتها. ولسنا نعرف ماالذى كانت عليه الرواية الأصلية. أما ماكانت عليه الاتجاهات التى أعملت الانحراف فى الرواية، فهذا مانحب أن نخمنه، ولكنا نُستبقى فى الظلام بحكم جهلنا للأحداث التاريخية. ولن يضلنا أن النظرية التى نحاول بها إعادة بناء الرواية لاتترك مكاناً للكثير جداً من سمات النص المتنوع المشاهد الذى يورده التوراة – الأوبئة العشرة، عبور البحر الأحمر، والتنزيل المقدس على جبل سيناء. ولكنا لانستطيع أن نبقى بغير اكتراث عندما نجد أنفسنا فى تعارض مع البحوث التاريخية اليقظة لعصرنا.

وهؤلاء المؤرخون الحديثون الذين يمثلهم خير تمثيل **أدوارد ميير**[1] يتبعون نص التوراة فى نقطة واحدة حاسمة، فهم يسلمون بأن القبائل اليهودية التى أصبحت فيما بعد شعب إسرائيل، قد قبلت فى وقت معين ديناً جديداً، ولكن هذه الحادثة لم تقع فى مصر، وليس كذلك عند سفح جبل شبه جزيرة سيناء، ولكن عند مكان يدعى «مِرْبَة قادش Meri-bat – Quades »، وهو واحة تتميز بوفرة ينابيعها وآبارها، فى البلاد الواقعة جنوبّى فلسطين، بين الطرف الشرقى لشبه جزيرة سيناء والطرف الغربى لشبه الجزيرة العربية، وهناك اعتنقت هذه القبائل عبادة الإله يهوه Jahve، وربما كان ذلك نقلاً عن قبائل المِدْيَنيين العربية التى كانت تعيش فى الجوار، ونحسب أن القبائل الأخرى المجاورة كانت هى الأخرى من أتباع ذلك الإله.

١- (Eduard Meyer) : Die Israeliten und ihre Nachbarts amme (1906)

ومن المؤكد أن يهوه كان إلها بركانياً، وكما نعرف فإن مصر تخلو من البراكين، ولم يحدث أن كانت جبال شبه جزيرة سيناء بركانية، ولكن البراكين، من ناحية أخرى، التى ربما كانت ماتزال حيّة حتى مرحلة متأخرة، توجد على طول الطرف الغربى لشبه الجزيرة العربية. ولابد أن أحد هذه الجبال هو جبل حوريب سيناء Sinai Horeb الذى يعتقد أنه مقر يهوه[1]. وبرغم كل التغييرات التى طرأت على نص التوراة، نستطيع أن نعيد - تبعاً لمبير - بناء الشخصية الأصلية للإله : فهو مارد، جبّار متعطش للدماء يجول فى الليل ويتجنب ضوء النهار[2].

وكان الوسيط بين الشعب والإله عند هذا الميلاد لديانة جديدة يسمى موسى، وكان زوج ابنة كاهن من أهل مدين اسمه يثرون (النبى شعيب) وكان يرعى غنم يثرون عندما كُلف بالدعوة، وقد ذهب إليه يثرون فى قادش ليزوده بما عليه أن يفعل.

ويقول إدوارد مبير أنه فعلاً لم يشك أبداً فى وجود نواة من الحقيقة التاريخية فى قصة الأسر فى مصر والكارثة التى وقعت للمصريين[3]، ولكنه صراحةً لايعرف المكان الذى جرت فيه تلك الواقعة المعترف بها، ولايعرف ماالذى يفعله بها. وهو لايريد أن يقر بأن الديانة اليهودية أخذت شيئا إلا عادة الختان، وهو يزودنا فيما سبق أن قلنا بفكرتين هامتين : الأولى أن يشوع طلب من الشعب أن يقبل الختان «ليدحرج عار مصر»[4]، والثانية عما ردده هيرودوت من أن الفينيقيين (الذين ربما هم اليهود) والسوريين فى فلسطين اعترفوا أنفسهم بأنهم تعلموا عادة الختان من المصريين[5]. ولكن مبير لايهضم فكرة موسى كان مصرياً، وهو يقول «إن موسى الذى نعرفه هو جد كهنة قادش، ومن ثم فهو بالنسبة إلى العقيدة صورة لأسطورة النسب وليس شخصاً تاريخياً». ولذلك لم ينجح واحد من أولئك الذين عاملوه كشخص تاريخى(فيما عدا أولئك الذين يقبلون التراث برمته كحقيقة تاريخية)

١- يستبقى نص التوراة فقرات معينة تقول لنا أن يهوه هبط من سيناء إلى مريبة قادش. (فرويد)

٢- المرجع السابق ص ٣٨، ٥٨.

٣- المرجع السابق ص ٤٩.

٤- يضع فرويد النص السابق بين قوسين، ولكنه يرد فى سفر يشوع الإصحاح الخامس الفقرة الثانية هكذا «قد دحرجت عنكم عار مصر». «الحفنى»

٥- المرجع السابق ص ٤٤٩.

فى ملء هذا الشكل الفارغ بأى مضمون، وفى وصفه كفرد مشخص؛ ولم يكن لديهم شئ يقولونه لنا عما حققه أو عن رسالته فى التاريخ[1].

ومن ناحية أخرى يظل مبير يردد دون ملل علاقة موسى بقادش ومدين :«صورة موسى المرتبطة ارتباطا وثيقا بمدين والأماكن المقدسة فى الصحراء ...»[2]. وهذه الصورة لموسى ترتبط ارتباطا متلازماً بقادش (ماسّة ومربة). وتكتمل الصورة بعلاقة المصاهرة بالكاهن المدينى. ومن ناحية أخرى فإن الارتباط بالخروج، وقصة شبابه فى جملتها، ثانويتان كلياً، ومجرد نتيجتين لضرورة أن يتلاءم موسى فى قصة متصلة الأجزاء مترابطة»[3]. وهو يلاحظ أيضاً أن السمات التى تتضمنها قصة شباب موسى قد حذفت فيما بعد. «فلم يعد فى مدين مصريا ولا ربيباً لفرعون، ولكنه راعٍ يتبدى له يهوا. وفى قصة الأوبئة العشرة، ينتهى ذكر علاقاته السابقة، رغم أنه كان من الممكن استخدامها استخداما مؤثراً، ويُنسى تماما الأمر الصادر بقتل الطفل الإسرائيلى المولود الأول. ولايُذكر لموسى أى دور إطلاقا فى الخروج وفى هلاك المصريين، بل لايرد أى ذكر له. وتغيب كلية فى موسى الأكثر تأخراً سمات البطل التى سبق افتراضها له فى الطفولة فهو ليس سوى رسول اللّه، وصاحب معجزات وقد أمدّه يهوا بقوى خارقة[4].

ولايسعنا أن نهرب من الإحساس بأن موسى قادش ومدين هذا، الذى لايمكن للرواية أن تنسب إليه كذلك انتصاب حية جرينة كإله بارئ، هو شخص مختلف تماماً عن المصرى الجليل الذى استقرأناه، والذى كشف لشعبه ديناً حُرّم فيه السحر والشعوذة كل التحريم. وربما لم يكن اختلاف موسى المصرى عن موسى المدينى بأقل من اختلاف الإله العالى أتون عن المارد يهوا على جبله المقدس، وإذ سلمنا بأى نصيب من الصحة للمعلومة التى يقول بها المؤرخون الحديثون، فعلينا أن نسلم كذلك بأن الخيط الذى تمنينا أن نسحبه من افتراض أن موسى كان مصريا قد انقطع للمرة الثانية وأنه انقطع هذ المرة، كما يبدو، دون أى أمل فى ربطه من جديد.

١- المرجع السابق ص ٤٥١.

٢- المرجع السابق ص ٤٩.

٣- المرجع السابق ص ٧٢.

٤- المرجع السابق ص ٤٧.

ولكن مخرجاً من هذه المشكلة يعن كذلك على غير المتوقع، فلقد استمرت الجهود التى كانت ترى فى موسى صورة تتجاوز كاهن قادش وتؤكد الشهرة التى أكسبته إياها الرواية، وقام بها جريسمان Gressmann وآخرون. وفى سنة ١٩٢٢ اكتشف إرنست سيلن(١) اكتشافاً له أهمية حاسمة، فلقد وجد فى سفر النبى هوشع (فى النصف الثانى من القرن الثامن) آثاراً لاتخطئ لرواية تفيد أن مؤسس ديانتهم موسى قد صادف نهاية عنيفة فى تمرد شعبه العنيد المشاكس، لأنهم كانوا قد هجروا فى ذلك الوقت الديانة التى أقامها(٢). وليس هوشع وحده الذى يقول هذه الرواية، فهى تتكرر فى كتابات معظم الأنبياء اللاحقين، وطبقاً لسيلين فإنها فى الواقع كانت الأساس لكل التوقعات اللاحقة للمسيح. وحوالى نهاية النفى فى بابل دبّ الأمل بين الشعب اليهودى فى عودة الرجل الذى قتلوه بغلظة من مملكة الموتى ليقود شعبه النادم - وربما ليس شعبه وحده - إلى عالم السعادة الأبدية. ولا وجود فيما نحن بصدده لأية شواهد ظاهرة عن مصير مؤسس أية ديانة لاحقة.

ولست طبعاً فى موقف يسمح لى بتقرير ماإذا كان سيلين قد فسّر تفسيراً صحيحاً الفقرات المعنية فى أسفار الأنبياء. فإذا كان مصيباً مع ذلك فربما جاز لنا أن نصدق من الناحية التاريخية الرواية التى أقرها هو، لأن مثل هذه الأمور لاتُخترع بسهولة، ولايوجد دافع واضح يدفع صاحبها إلى اختراعها. وإذا كانت هذه الأمور قد حدثت فعلا، فإن الرغبة فى تناسيها رغبة نفهمها بسهولة ولاحاجة بنا إلى أن نتقبل كل تفاصيل الرواية، ويظن سيلين أن أرض شيتيم Shittim شرقىّ الأردن هى الأرض التى يُشار إليها بوصفها مسرح هذا الفعل العنيف. وسنرى رغم ذلك أن اختيار هذا الموضع لايتفق مع نظريتنا.

ولنر رأى سيلين، ولنفترض معه **أن موسى قد قتله اليهود**، وأن الديانة التى

١- Ernst Sellin : Mose und seine Bedeutung fur die israelitische - judische Religionsgeschichte (1922).

٢- يشير فرويد إلى النص الوارد فى سفر هوشع الإصحاح الثانى عشر الآية ١٢ «وهرب يعقوب إلى صحراء أرام وخدم إسرائيل لأجل امرأة، ولأجل امرأة رعى. وبنبى أصعد الرب إسرائيل من مصر وبنبى حُفظ.. أغاظه إسرائيل بمرارة فيترك دماءه عليه ويرد سيدُه عاره عليه». (الحفنى)

اشترعها قد هُجرت، فهذا يسمح لنا بأن نغزل خيوطنا أبعد دون أن نتعارض مع النتائج المأمونة للبحث التاريخي. ولكننا نغامر بأن نستقل عن المؤرخين في النواحي الأخرى ونشعل الدرب الذي نسير عليه وحدنا بنور متوهج. ولكن الخروج من مصر يظل هو نقطة بدايتنا، ولابد أن عدد اليهود الذين رحلوا عن البلد مع موسى كان عدداً كبيراً، وماكان لذلك وهو الرجل الطموح بمشاريعه الضخمة أن يحفل بجماعة صغيرة. ومن المحتمل أن المهاجرين كانوا في البلد وقتاً يكفي تكاثرهم إلى شعب عديد. ولن نضل يقيناً مع ذلك إذا افترضنا مع غالبية الباحثين أن جزءاً فقط من أولئك الذين صاروا فيما بعد الشعب اليهودي قد خضعوا لمصير العبودية في مصر، وبمعنى آخر فإن القبيلة العائدة من مصر انضمت فيما بعد في البلد الواقعة بين مصر وكنعان إلى القبائل الأخرى المتآصرة والتي كانت تقيم هناك لبعض الوقت. وهذا الاتحاد، الذي ولد منه شعب إسرائيل، عبر عن نفسه في اعتناق دين جديد، عام بالنسبة لكل القبائل، هو دين يهوا. وطبقاً لما يقوله مبير فإن ذلك حدث في قادش تحت نفوذ المدينيين. وبعد ذلك أحس الشعب بأنه قوي حتى ليمكنه أن يقوم بغزو كنعان. ولايتلاءم مع مجرى الحوادث هذا أن تقع تلك الكارثة التي حلت بموسى وديانته في المنطقة شرقي الأردن - وإنما لابد أنها وقعت في زمن يسبق الاتحاد بوقت طويل.

ولاشك أن عناصر كثيرة متنوعة للغاية أسهمت في تكوين الشعب اليهودي، ولكن أعظم الخلافات بين هذا الشعب قد اعتمدت حتما على ماإذا كان شعب اليهود قد عاش فعلا الاغتراب في مصر وماجرى بعده، أم لا؟ ومن وجهة النظر هذه قد نقول إن الأمة قد صنعها اتحاد عنصرين، وهو أمر يتوافق مع هذه الواقعة : وهي أنه بعد فترة قصيرة من الاتحاد السياسي، انفلق الاتحاد إلى جزئين - مملكة إسرائيل، ومملكة يهودا. والتاريخ يحب أمثال هذه التجديدات التي يستعيد فيها نفسه، والتي يفصم فيها من جديد عرى الاندماجات السابقة، وتتضح فيها من جديد الانقسامات التي كانت موجودة من قبل. ولعل أبرز مثل على ذلك - وهو مثل معروف جداً - هو حركة الإصلاح، عندما دفعت إلى الضوء من جديد، وبعد فترة تزيد على الألف عام، بالحدود بين جرمانيا التي كانت ضمن الدولة الرومانية، وبين الجزء الذي ظل دائماً مستقلا. ومع الشعب اليهودي لايسعنا أن نتحقق من أن الوضع السابق للأمور قد بعث من جديد بحذافيره. ومعلوماتنا عن تلك العصور ليست

مؤكدة كلية.، بحيث يسعنا أن نفترض أن المملكة الشمالية قد استوعبت اليهود الذين كانوا يقيمون أصلا فيها، بينما سكن المملكة الجنوبية اليهود العائدون من مصر؛ ولكن الانقسام اللاحق فى هذه الحالة كذلك، لايمكن فصله عن الاتحاد الذى حدث فى الفترة الأولى. والمحتمل أن اليهود المصريين كانوا أقل عدداً من اليهود الآخرين، ولكنهم دللوا على أنهم **كانوا على مستوى ثقافى أعلى، وكان لذلك تأثير أهم على التطور اللاحق للشعب، لأن اليهود المصريين استحضروا معهم تراثاً كان ينقص الآخرين.**

وربما قد استجلبوا شيئاً آخر، شيئاً أكثر اتضاحاً من مجرد التراث، فمن بين الألفاز الكبرى فى عصور ماقبل التاريخ اليهودية، توجد الألفاز المتعلقة بأسلاف اللاويين، حيث يقال إن أصلهم إحدى قبائل إسرائيل الإثنتى عشرة، قبيلة لاوى. ولكنه لم يحدث أن كانت لإحدى الروايات الجرأة لأن تعلن فى أى مكان سكنت تلك القبيلة أصلا، أو ماهو الجزء من أرض كنعان الذى غزوه قد خصص لها، فقد احتلوا الأماكن التى لها الأهمية الأكثر بالنسبة للكهنة، ومع ذلك كانوا متميزين عن الكهنة، فاللاوى ليس بالضرورة كاهناً، وليست اللاوية اسماً لطبقة. ويقدم اقتراحنا عن شخص موسى تفسيراً، **فليس من المصدق أن إنساناً عظيما مثل موسى المصرى كان من الممكن أن يقترب من شعب غريب عليه بدون أن تكون له بطانة. فلابد أنه قد استجلب معه حاشيته من أتباعه المقربين وكتبته وخدمه. وهؤلاء كانوا اللاويين الأصليين.** وتتمسك الرواية بأن موسى كان لاوياً، ويبدو أن ذلك تشويه ظاهر لواقع الأمور، فاللاويون كانوا شعب موسى، وهذه النتيجة يؤيدها ماذكرته فى مقال سابق : **أنه فى العصور اللاحقة نجد أسماء مصرية فقط بين اللاويين**[1]. ومن الجائز أن نفترض أن عدداً لابأس به من ذاك الشعب الموسوى قد أفلت من المصير الذى حاق به وبديانته، وتكاثروا فى الأجيال التالية واختلطوا بالشعب الذى عاشوا بينه، ولكنهم ظلوا على ولائهم لسيدهم، يجلّون ذكراه، ويحفظون تقاليد تعاليمه. وفى زمن الاتحاد مع أتباع يهوه شكلوا

١- يتوافق جدا هذا الافتراض مع مايقوله يهودا yahuda عن تاثير المصرى على الكتابات اليهودية المبكرة. أنظر أ. س . يهودا : Die Sprache des Pentateuch in ihren Beziehungen zum Agyptischen (١٩٢٩). (فرويد)

أقلية لها نفوذها، أعلى ثقافياً من الباقين.

وأقترح – وهو ليس إلا اقتراحاً حتى الآن – أنه بين سقوط موسى وتأسيس ديانة فى قادش ولد جيلان واختفيا، وأنه ربما انصرم كذلك قرن. ولست أتبين طريقى حتى يمكننى أن أستيقن مما إذا كان المصريون الجدد، كما أوثر أن أسمى أولئك الذين عادوا من مصر تمييزاً لهم عن اليهود الآخرين، قد التقوا بأقاربهم فى الدم بعد أن كان أولئك قد ارتضوا ديانة يهوا أو قبل أن يحدث ذلك. وربما كان القول الأخير هو الأكثر احتمالا. وهو لايحدث أى اختلاف بالنسبة للنتيجة النهائية، فإن ماحدث فى قادش هو التقاء بين الطرفين، والدور الذى لعبته فيه قبيلة موسى قابل للتخطئة.

وهنا يجوز لنا أن نعود إلى عادة الختان التى أمدتنا مراراً بخدمات هامة. ولقد صارت هذه العادة كذلك قانوناً من قوانين ديانة يهوه، وحيث أنها ترتبط بمصر ارتباطاً وثيقاً، فإن الأخذ بها لابد أن يعنى إذعاناً لشعب موسى، وماكان لذاك الشعب – أو للاويين الذين يتزعمونه – أن يطرحوا جانباً تلك العلامة التى تدل على تكريسهم. وكانوا يريدون أن ينقذوا الكثير من ديانتهم القديمة، وكثمن لذلك كانوا يرضون بالاعتراف بالمعبود الجديد وبكل ما كان يقوله الكهنة المدينيون عنه. ومن المحتمل أنهم حاولوا الحصول على المزيد من التنازلات. ولقد ذكرت آنفا أن الطقوس اليهودية تفرض اقتصاداً معيناً فى استخدام اسم الله، وبدلا من يهوه كان عليهم أن يقولوا أدوناى Adonai. ومن المغرى أن نضمّن هذه الوصية فى مناقشتنا، مجرد فرض، وكما هو معروف فإن النهى عن النطق باسم الله هو من المحرمات البدائية، وليس من الواضح تماماً السبب بالضبط الذى يحدد به فى الوصايا اليهودية، وإنه لأمر محل نقاش أن يحدث هذا تحت تأثير دافع جديد ولاسبب يدعو إلى افتراض أن هذه الوصية طبقت بشكل حاسم، فلقد استخدمت كلمة يهوه فى تشكيل أسماء ذات مدلولات دينية – أى استخدمت فى تركيبات مثل يشوع وياهو ويوحنان. ومع ذلك فهناك شئ غريب فى هذا الاسم، فمن المعروف أن علم تفسير التوراة يُقر مصدرين للأسفار الستة، ويسميان «ى» و«أ»، لأن أحدهما يستخدم اسم يهوا المقدس، والثانى يستخدم اسم إلوهيم Elohim. والواقع أنه إلوهيم وليس أدوناى. ولربما جاز لنا هنا أن نردد ملحوظة أحد المؤلفين :«إن الأسماء المختلفة دليل واضح على آلهة مختلفة أصلا»[1].

ولقد سلّمنا بأن الأخذ بعادة الختان كدليل على أنه فى وقت تأسيس الدين الجديد فى

١- Hugo Gressmann : Mose und seine Zeit (Gottingen, 1913) p. 54. (فرويد)

قادش حدث التقاء، ونحن نعلم أن الالتقاء كان بين كل من «ى» و«أ»، والقصتان تتفقان، ولذلك ينبغى أن نرجعهما إلى مصدر مشترك، إما أنه مصدر مكتوب أو رواية شفاهية. وكان الهدف المقصود هو إثبات عظمة وقوة الإله الجديد يهوه. وحيث أن شعب موسى كان يعلق مثل هذه الأهمية الكبيرة على تجربة خروجه من مصر، فكان لابد أن ينسب تحريره إلى يهوه، وكان لابد من تزويق هذا العمل بسمات تثبت العظمة المخيفة لهذا الإله البركانى، مثل عمود الدخان الذى تحول إلى عمود من نار فى الليل، أو العاصفة التى قسمت الماء حتى أغرقت فيضانات الماء الراجعة المطاردين. ومن ثم اقترن الخروج بتأسيس الديانة الجديدة، وأنكرت الفترة الطويلة التى بينهما، وقيل إن تنزيل الوصايا العشر كذلك جرى ليس فى قادش ولكن عند سفح الجبل المقدس وسط مظاهر انفجارات بركانية. وألحق هذا الوصف مع ذلك ضرراً بليغاً بذكرى موسى الإنسان، فلقد كان موسى وليس الإله البركانى، هو الذى حرر شعبه من مصر. ومن ثم كان لابد من تعويضه، ولقد عُوِّض بنقله إلى قادش أو إلى جبل حوريب سيناء، وبوضعه فى مكان الكاهن المدينى. ولسوف نناقش فيما بعد كيف أرضى هذا الحل ميلاً عاجلاً آخر لايقاوم، فعن طريقه تحقق نوع من التوازن، واستطاع يهوه أن يبسط سلطانه إلى مصر من جبله فى ميدين، بنما نقل وجود ونشاط موسى إلى قادش والبلد الواقع شرقىّ الأردن. وكانت هذه هى الطريقة التى صار بها واحداً مع الشخص الذى كانت له فيما بعد ديانة، وهو زوج ابنة يثرون المدينى، الرجل الذى أُعطى اسم موسى كذلك. ونحن لانعرف مع ذلك شيئاً شخصياً عن هذا الموسى الآخر - فموسى الأول، موسى المصرى، يحجبه تماماً، إلا احتمالاً فيما يبدو من دلالات تظهرها التناقضات الموجودة فى التوراة فى وصف موسى، فهو يوصف كثيراً بأنه متسيِّد حامى الطبع، وعنيف، ومع ذلك يقال عنه أيضاً أنه كان أكثر الناس حلما «ووداعة»ومن الواضح أن الصفات الأخيرة ماكان لها نفع لموسى المصرى الذى خطط لشعبه مثل تلك المشروعات العظيمة والصعبة، وربما كانت تخص الآخر، المدينى. وأظن أن لى مايبرر فصل الشخصين عن بعضهما البعض، وتصور أن موسى المصرى لم يحدث أن كان فى قادش أبدا، وأنه لم يسمع أبدا باسم يهوه، بينما لم يضع موسى المدينى قدماً فى مصر، ولم يعرف شيئاً عن أتون. ولكى توّحد بين الشعبين فى شعب واحد، كان لزاماً على الرواية أو الأسطورة أن تحُضر موسى المصرى إلى مدين، ورأينا أن أكثر من تفسير واحد قد أعُطى لها .

إننى على استعداد تام لأن أسمع من جديد العتاب بأنى قد صغت بنائى المعاد للتاريخ المبكر لقبيلة إسرائيل بيقين غير لائقٍ وليس له مايبرره. ولن أحس أن هذا النقد قاس جدا طالما أنه يجد صدى فى حكمى أنا، وأعرف أنا نفسى أن هذا البناء له مواضعه الضعيفة، ولكن له كذلك مواضعه القوية. وعلى العموم فإن الحجج المؤيدة لاستمرار هذا العمل فى نفس الاتجاه تنتصر. ويحتوى سجل التوراة الذى أمامنا على شواهد تاريخية قيّمة – بل على شواهد لاتقدر لها قيمة، ولكنها شوهت بتأثيرات مغرضة، واستكملتها نتاجات التأليف الشاعرى. وفى عملنا استطعنا من قبل أن نتنبأ بواحد من هذه النزعات المشوهة. وسيهدينا هذا الاكتشاف فى طريقنا، فهو لمحة لكشف الغطاء عن النزعات المشوهة المماثلة. وإذا وجدنا أسباباً للإقرار بالتشويهات التى أنتجتها، فلسوف نستطيع أن ندفع إلى الضوء بالمزيد من المجرى الحقيقى للأحداث.

ولنبدأ بأن نتبين مايقوله البحث النقدى للتوراة عن كيفية كتابة الأسفار الستة[١] – كتب موسى الخمسة وكتاب يشوع – لأنها وحدها التى تهمنا هنا. ويعتبر أقدم المصادر المصدر المسمى «ى»، أو المصدر الذى يتناول يهوه والذى يظن أحدث الباحثين أنهم يتعرفون فى مؤلفه على الكاهن أبياثار Ebjatar[٢] أحد المعاصرين للملك داود[٣]. وبعد ذلك بقليل، ولايعرف لِمَ كان ذلك القليل، يأتى المصدر المسمى الإيلوهيمى والذى ينتمى إلى المملكة الشمالية[٤]. وبعد دمار هذه المملكة سنة ٧٢٢ ق.م. ضم أحد الكهنة اليهود أجزاء من «ى»

١- أنظر مقالة الإنجيل Bible فى الطبعة الحادية عشرة من Encyclopaedia Britannica (دائرة المعارف البريطانية لسنة ١٩١٠). (فرويد)

٢- سفر صموئيل الثانى الإصحاح الخامس عشر. وقد اختلف ابنا الملك داود، وهما أدونيا وسليمان على من يخلفه، وانتصر أبياثار لأدونيا على سليمان، وعندما مات داود وتولى سليمان الملك انتقم من أبياثار وطرده من الكهانة. (سفر الملوك الأول الإصحاح الثانى). (الحفنى)

٣- أنظر : Auerbach : Wuste und Gelobtes Land (1932) (فرويد)

الملك داود بن إشعيا من سبط يهوذا، تولى الملك وهو بعد صبى ويعتبر من مؤسسى مايسمى بمملكة يهوذا، وخلفه على الملك ابنه سليمان. (الحفنى)

٤- كان استروك سنة ١٧٥٣ أول من ميّز بين المصدر الذى ينتسب إلى يهوا والمصدر الذى ينتسب إلى إيلوهيم. (فرويد)

المملكة الشمالية: يقال إن الدولة اليهودية كانت ثلاث دول، مملكة فى الشمال عاصمتها سامريا، ومملكة يهوديا فى الجنوب، ومملكة الجليلى فى الوسط، وليس هناك من الآثار مايدل على ذلك سوى مايقوله التوراة اليهودى وهو من تدبيج كهنة اليهود وخاصة عزرا الذى يسميه القرآن الكريم «عُزَيْز» (الحفنى)

إلى أجزاء من «أ»، وأضاف إليهما إسهامات من عنده، وأطلق على مجموعته اسم «ى أ». وفى القرن السابع أضيف السفر الخامس «التثنية»، وقيل إنه قد عثر عليه حديثاً بأكمله فى المعبد. وفى الزمن الذى تلا تدمير المعبد، فى سنة ٥٨٦ ق.م، خلال النفى وبعد العودة، وضع مايسمى بالتشريع الكهنوتى وأعيدت كتابته، ورأى القرن الخامس عشر مراجعة محددة لمادة التوراة[١]، ومنذ ذلك الوقت لم يتناول التغيير هذه المادة.

ومن المحتمل أن تاريخ الملك داود وتاريخ عصره كتبه أحد معاصريه. وهو تاريخ حقيقى جرت وقائعه قبل هيرودوت «أبو التاريخ» بخمسمائة سنة. ولسوف يتيسر فهم هذا التاريخ إذا تصورنا وجود تأثير مصرى فى حدود الفرض الذى افترضناه. وكان هناك اقتراح[٢] بأن الإسرائيليين الأوائل من كتبة موسى، كان لهم يد فى اختراع أول أبجدية عبرية[٣]. وليس بوسعنا بالطبع أن نعرف إلى أى مدى تقوم الروايات عن العصور السابقة على المصادر المبكرة أو على الرواية الشفاهية، وأن نعرف مدى الفترة التى انقضت بين حادثة ما وبين تثبيتها بالكتابة. ومع ذلك فإن النص كما نجده اليوم يقص علينا مافيه الكفاية، عن تاريخه هو نفسه، وتركت قوتان متميزتان ومتعارضتان أثرهما عليه، فمن ناحية كان على تغييرات معينة أن تعمل عملها فيه، مزيِّفة النص طبقاً لميول مستسرة، تقتطع منه وتزيد

١- من المؤكد تاريخياً أن النموذج اليهودى تحدد نهائيا كنتيجة لإصلاحات عزرا ونحميا فى القرن الخامس قبل الميلاد، أى بعد النفى وخلال حكم ملوك فارس الذين كانوا أصدقاء لإسرائيل. وطبقاً لحسابنا فإن ٩٠٠ سنة تقريباً مرّت منذ ظهور موسى. وعن طريق الإصلاحات أخذ الشعب التنظيمات التى تهدف إلى تقديس الشعب المختار منذ الجد، فطبّق الانفصال عن القبائل الأخرى بالقوة بمنع الزواج المختلط، وأقّر البنتاتيوخ (الأسفار الخمسة)، وهو التجميع الأصلى للشريعة. فى صورته المحددة، وتم إعادة كتابة مايسمى باسم التشريع الكهنوتى. ويبدو يقيناً مع ذلك أن الإصلاح لم يأخذ بأية اتجاهات جديدة، ولكنه حقق ببساطة الاقتراحات السابقة ودعّمها. (فروید)

والتوراة هو كتاب اليهود ويتألف من ٣٩ سفراً، والمعنى الحرفى للكلمة هو «التعليم» وينسب إلى عزرا كتابة التوراة عن طريق إعادة كتابة التراث. أما التلمود فهو كتاب اليهود الثانى، وإذا كان التوراة قد وضع بعد موسى بنحو ألف عام فالتلمود وضع بعد التوراة بعدة قرون. (الحفنى)

٢- انظر كتاب ياهودا السابق ص ١٤٢.

٣- لأنهم وقد حُظر عليهم صنع الصور والتماثيل فقد كان ذلك دافعاً لهم إلى التخلى عن الكتابة بصور اللغة الهيروغليفية واتخذوا علاماتهم الكتابية كشكل جديد من أشكال التعبير المقروء. (فروید)

عليه حتى استحال إلى ضده، ومن ناحية أخرى سيطر عليه ورع متسامح مشوق إلى أن يستبقى كل شئ، لايبالى ماإذا كانت التفاصيل تترابط مع بعضها أوأنها تلغى بعضها البعض. وهكذا يمكن أن توجد فى كل مكان تقريباً محذوفات بصورة مدهشة، ومتكررات معوقة، ومتناقضات ظاهرة، وإشارات لأشياء لم يقصد توصيلها أبداً. وتشويه النص لايختلف عن الجريمة. ولاتوجد صعوبة فى تنفيذ العمل، ولكن فى التخلص من الآثار. وكان بوسعنا أن نتمنى أن نعطى كلمة «تشويه» المعنى المزدوج الذى لها الحق فيه، مع أنها لاتستخدم الآن فى هذا المعنى، وكان يجب أن تعنى، ليس فقط «تغيير المظهر»، ولكن كان يجب أن تعنى كذلك «التحريف»، و«الوضع فى مكان آخر»[1]. وهذا هو السبب فى أنه فى كثير جداً من التشويهات فى النصوص يجوز لنا أن نعتمد على أننا سنجد المادة المكتوبة والمنكرة مخفية فى مكان ما، ولو فى شكل مغاير ومنتزع من ارتباطه الأصلى. وكل ماهنالك أنه ليس من السهل دائما التعرف عليها.

والميول المشوهة التى نريد أن نكشفها لابد أنها أثرّت على الروايات قبل أن تُكتب. ولقد اكتشفنا إحداها، وربما كان أقواها جميعاً. وقلت أنه عندما عُبد الإله الجديد يهوه فى قادش كان لابد من عمل شئ لتمجيده. والشئ الواقعى أكثر أن نقول أنه كان يتعين إقامته أولاً وأن يوسع له مكان، وكان يجب أن تباد آثار الديانات السابقة. ويبدو أن هذا نُفذ بنجاح مع دين القبائل المستقرة، فلم يسمع عنها شئ من بعد، ولكن المهمة لم تكن سهلة مع القبائل العائدة، فلقد كانت مصممة على ألاّ يُسلب منها الخروج من مصر وموسى الإنسان وعادة الختان. وإنها لحقيقة أنهم كانوا فى مصر، ولكنهم غادروها مرة أخرى، ومن الآن فصاعداً لابد من رفض كل أثر للنفوذ المصرى. وتمّ التخلص من موسى بأن نُقل إلى ميدين وقادش، وأُدمج فى شخص واحد بالكاهن الذى أسس ديانة يهوه. وكان لابد من استبقاء الختان، وهى أكثر العلامات دلالة على الرضا على الاعتماد على مصر، ولكن رغم كل الشواهد الموجودة، بذلت كافة الجهود الممكنة لفصل هذه العادة عن مصر. ولايمكن تفسير الفقرة المحيّرة فى سفر الخروج، المكتوبة فى أسلوب غير مفهوم تقريباً، وتقول إن

١- وشهد شاهد من أهلها، بل هو من أكابرهم، ففرويد هنا يقر بأن التوراة تناولها التشويه بالحذف وبالزيادة وبالنقل وبالتحريف كما يروى القرآن : من الذين هادوا يحرفون الكلم عن مواضعه «النساء»، وأيضا «وقد كان فريق منهم يسمعون كلام الله ثم يحرفونه من بعد ما عقلوه» (البقرة). (الحفنى)

اللّه كان غاضبا على موسى لإهماله الختان، وأن زوجته المدينية أنقذت حياته بإجراء عملية ختان سريعة، إلاّ بأنها تناقضٌ متعمد للحقيقة الكاشفة. وسنصادف عما قريب بدعة أخرى ابتدعوها بهدف إبطال نتفة صغيرة لها شهادتها المزعجة.

وليس فى الإمكان تماماً وصفها بأنها اتجاه جديد - إنها ليست استمرار المحاولة نفسها - عندما نعثر على محاولة لإنكار أن يهوه كان إلها جديداً، إلها غريبا على اليهود، إنكاراً تماماً. ولهذا السبب نسجت أساطير الآباء أبراهام وإسحق ويعقوب. وتصر ديانة يهوه أن يهوه كان إله هؤلاء الآباء. هذا حق، ولكن على هذه الديانة نفسها أن تقر أيضا بأن يهوه لم يعبده هؤلاء الآباء تحت هذا الاسم[1].

ولاتحدثنا ديانة يهوه عن الاسم الآخر الذى كان يُعبد به، ولكنها تحينت الفرصة لتوجيه ضربة حاسمة إلى القول بأن عادة الختان أصلها مصرى، فقيل إن يهوه قد طلب من أبراهام أن يُختتن، وجعل يهوه الختان كعلامة على الميثاق المضروب بينه وبين نسل أبراهام. وهذه، على أى حال، فرية شديدة الحمق، لأنه لو شئنا أن نستخدم علامة نميز بها أحد الناس عن سائر الشعب، لاخترنا شيئاً لايمتلكه الآخرون - وهو بالتأكيد شئ ليس عند الملايين من الناس. والإسرائيلى الذى يجد نفسه فى مصر، سيجد أن عليه أن يقر بأن المصريين كلهم إخوته، لأن الميثاق الذى بينه وبين يهوه، هو نفسه الميثاق الذى يجمعه والمصريين كإخوة فى يهوه. وليس من الممكن أن يجهل الإسرائيليون الذين توفروا على تأليف التوراة أن المصريين كانوا يمارسون عادة الختان. وتقر ذلك الفقرة التى يوردها مبير من سفر يشوع إقراراً صريحا، ومع ذلك كان لابد من إخفاء الحقيقة بأى ثمن.

ولايمكننا أن نتوقع من الأساطير الدينية أن تولى انتباهاً متشككاً إلى الارتباطات المنطقية، وإلا أصابت الكراهية إحساس الشعب عن حق إزاء تصرف إله يعقد ميثاقاً مع آبائه يتضمن تكليفات متبادلة، ثم يتجاهل شركاءه البشريين لقرون إلى أن يطرأ له فجأة أن يكشف عن نفسه مرة أخرى لنسلهم. **وأكثر من ذلك إثارة للدهشة المفهوم عن إله «يختار» فجأة شعباً من الشعوب، ويجعله «شعبه» ويقيم من نفسه إلها لهم.** وأعتقد أن هذه هى الحالة الوحيدة فى تاريخ الديانات البشرية التى

١-إن القيود على استخدام الاسم الجديد لاتصبح أكثر فهماً، ولو أنها تصبح أكثر تعرضاً للريبة.(فرويد)

حدث فيها مثل ذلك. وفى الحالات الأخرى ينتمى الشعب وإلهه إلى بعضهما بلا انفصال، فهما واحد منذ البداية. وإنه لحقيقة، أن نسمع أحيانا عن شعب يأخذ فى عبادة إله جديد، ولكننا لم نسمع عن إله يختار شعباً جديداً. وربما نقترب إلى فهم هذا الحدث الفريد عندما نفكر فى الارتباط بين موسى وبين الشعب اليهودى، فموسى هو الذى نزل إلى اليهود، وجعلهم شعبه، أى أنهم صاروا «شعبه المختار»[1].

وكان هناك بالإضافة إلى ذلك هدف آخر لإدخال الآباء فى دين يهوه الجديد، فلقد عاشوا فى كنعان، وارتبط ذكرهم بأماكن معينة فى البلد. وربما كانوا هم أنفسهم أبطال كنعانيين أو معبودات محلية اتخذها الإسرائيليون المهاجرون معبودات لهم فى تاريخهم

١- كان يهوا إله براكين بلا جدال. ولم يكن هناك سبب يدعو سكان مصر إلى عبادته. ولست بالتأكيد أول من يبدهنى التشابه بين اسم يهوه أو جاهفيه أو جيهوفا وبين جذر اسم إله آخر : جوبيتر وجوفيس (Jahve, Jupiter, Jovis). والاسم التركيبى يوحنان، المكون جزئياً من الكلمة العبرية يهوه، وله معنى يشابه إلى حد ما اسم جودفرى والاسم القرطاجى المساوى له هانيبال، صار أحد الأسماء الأكثر شيوعا فى المسيحية الأوروبية فى أشكال جوهان وجون وجين وجوان. وعندما يعيد الإيطاليون إنتاج الاسم فى شكل جيوفانى ثم يسمون أحد أيام الأسبوع جيوفيدى يدفعون مرة أخرى إلى الضوء تشابها ربما لايعنى شيئا أو ربما كان يعنى الكثير جداً. وتتفتح إمكانيات بعيدة المدى، ولو أنها غير آمنة بعض الشئ، تتفتح هنا، فلقد كانت البلاد حول الحوض الشرقى للبحر الأبيض، فى تلك القرون المظلمة التى لم يكد البحث التاريخى يبدأ فى تكشفها، كما يبدو مسرحاً لانفجارات بركانية متعددة وعنيفة، كان لابد أن تترك أثراً عميقا على السكان. ويفترض إيفانز Evans (مؤرخ) أن الدمار الأخير الذى حاق بقصر الملك مينوس فى كنوسوس Knossos كان كذلك نتيجة زلزال. وكانت الإلاهة الأم العظيمة حينئذ تعبد فى كرين، كما كانت تعبد احتمالا فى كل مكان من العالم الإيجى. وربما أسهمت الملاحظة التى تقول أنها لم تكن بوسعها أن تحمى بيتها ضد هجوم قوة أقوى، فى تخليها عن مكانها لإله ذكر، ومن ثم كان لإله البراكين الحق الأول فى شغل مكانها. ومايزال الإله زيوس يحمل اسم «الذى يهز الأرض». ولايكاد يوجد شك فى أنه فى تلك الأزمات الغامضة حلّت الآلهة المذكرة محل الآلهة المؤنثة (وربما كانت فى الأصل من أبنائها). وإن مصير بالاس أثينا Pallas Athene لمؤثر بنوع خاص وكان بلاشك الشكل المحلى للإلاهة الأم، والتى اختُزلت خلال الثورة الدينية وصارت مجرد ابنة، وانتزعت منها أمها، وحيل بينها للأبد وبين الأمومة بمقتضى التحريم الذى أحيطت به العذرية. (فرويد)

ويقصد فرويد من شعبه المختار هنا أن موسى والإله كليهما لم يكونا من شعب اليهود، وأن موسى والإله كليهما كان غريباً على اليهود، حيث أن موسى قد ترك شعبه المصرى ويشّر اليهود بدينه الجديد، فلقد صار اليهود شعبه المختار أى الذى اختاره بديلا عن شعبه المصرى. (الحفنى)

المبكر. وبإحيائها يقدمون الدليل، كما نرى، على أنهم ولدوا وتربوا فى البلد، وأنهم يرفضون الكراهية التى تلتصق بالغازى الأجنبى. وكان ذلك تحولاً نكياً : لم يعطهم يهوه سوى ماكان لأسلافهم فى يوم من الأيام.

وفى الإسهامات اللاحقة إلى نص التوراة واجه الميل إلى تجنب ذكر قادش نجاحاً، وصار مسرح تأسيس الديانة الجديدة هو جبل حوريب سيناء المقدس بشكل قاطع؛ ولايتضح الدافع، وربما لم يكونوا يريدون أن يُذكرُوا بنفوذ ميدين، ولكن كل التشويهات اللاحقة، وخاصة التشويهات التى لحقت بالتشريع الكهنوتى، تخدم غرضا آخر، فلم تعد هناك أية حاجة لتغيير مواصفات الأحداث التى جرت فى الزمان البعيد نحو اتجاه معين، فقد حدث ذلك منذ زمن بعيد. ومن ناحية أخرى، بُذلت محاولة لإرجاع بعض قوانين وشرائع الحاضر إلى عصر مبكر، ولإقامتها كقاعدة على القانون الموسوى، تستمد منها دعواها فى القدسية والقوة الملزمة. ومهما زُينت صورة العصور القديمة بهذه الطريقة، فإن الإجراء لاينقصه تبرير سيكولوجى معين. لقد عكس حقيقة أنه خلال الكثير من القرون – انقضت نحو ثمانمئة سنة بين الخروج وبين عملية تثبيت نص التوراة التى قام بها عزرا ونحميا – سارت ديانة يهوه فى خط تطورى رجعى تُوّج باندماج (وربما كان ذلك لدرجة التماثل الفعلى) مع الديانة الأصلية لموسى.

وهذه هى النتيجة الجوهرية : المحتوى المصيرى لتاريخ اليهود الدينى.

✠ ✠ ✠

-٧-

بين كل أحداث التاريخ اليهودى القديم الذى آل الشعراء والكهنة والمؤرخون على أنفسهم تصويره فيما تلا ذلك من عصور، كانت هناك حادثة بارزة دعت إلى طمسها أفضل الدوافع الإنسانية وأكثرها وضوحا. هذه الحادثة هى مقتل موسى الزعيم والمحرر العظيم، والذى أحس بها «سيلين» من كلام الأنبياء. ولايمكن تسمية حدس سيلين بالخيالى، فهو محتمل جدا. فموسى الذى تدرب فى مدرسة أخناتون استخدم نفس الطرق مثل الملك. لقد كان يعطى الأوامر ويفرض ديانته على الشعب[1]، وربما كانت ديانة موسى أكثر تعصباً من ديانة سيده، ولم تكن به حاجة

١– فى تلك العصور ماكان من المحتمل تقريباً أن يكون هناك أى شكل آخر من أشكال التأثير. (فرويد)

لاستبقاء أى ارتباط بديانة إله الشمس طالما أن مدرسة أون لن تكون لها أهمية لشعبه الغريب. **وواجه موسى نفس المصير الذى واجه أخناتون، المصير الذى ينتظر كل الطغاة المستنيرين.** ولم يكن بوسع شعب موسى اليهودى أن يتحمل كذلك مثل هذه الديانة الروحية، وأن يجد فيما تقدمه إشباعاً لحاجاته، كما حدث للمصريين أثناء الأسرة الثامنة عشرة. وفى الحالتين حدث نفس الشئ : ثار أولئك الذين أحسوا أنهم مايزالون تحت الوصاية، أو الذين جُرِّدوا، وأُلقوا عنهم عبء ديانة فُرضت عليهم. ولكن بينما انتظر المصريون الوديعون حتى رفع عنهم القدر شخص فرعون المقدس، أخذ الساميون الهمج قدرهم فى أيديهم وتخلصوا من طاغيتهم[1].

وليس بوسعنا كذلك أن نصر على القول بأن نص التوراة الذى حُفظ لنا لايعدنا لنهاية كتلك التى حدثت لموسى. وتصف رواية «التيه فى البرية» – التى ربما جرت فى زمن حكم موسى – سلسلة من التمردات الخطيرة ضد سلطته، التى أخمدت مع معاقبة المتمردين عقاباً وحشيا بأمر يهوه. ومن السهل تخيل أن إحدى تلك التمردات انتهت إلى خاتمة أخرى خلاف مايورده النص. ويذكر فى النص أيضاً تنكر الشعب للديانة الجديدة، ولو أنه يذكر كمجرد حادث. ويقصد به حكاية العجل الذهبى، حيث تحول خرْق ألواح الشريعة بشطارة ونُسب إلى موسى نفسه، ورُدَّ إلى سخطه الغاضب، بحيث صار هذا الخرق نفسه يؤوّل تأويلاً رمزياً كاعتداء من موسى على الشريعة.

وجاء وقت عندما أسف الشعب على اغتيال موسى وحاولوا نسيانه. وحدث ذلك بالتأكيد فى وقت التجمع بقادش. وعلى ذلك فلو قرب الزمن الذى وقع فيه الخروج من زمن تأسيس ديانتهم فى الواحة، وسمحوا لموسى الآخر بدلاً من موسى الذى أسّس الديانة، بالمساعدة فى تأسيسها، حينئذ لايتحقق فقط الإشباع لمزاعم شعب موسى، ولكن يتحقق كذلك بنجاح إخفاء الواقعة المؤلمة لإزاحته بطريقة عنيفة. والواقع أن من غير المحتمل غالباً أن موسى كان من الممكن أن يشارك فى الأحداث التى جرت فى قادش حتى ولو لم تُختصر حياته.

وهنا ينبغى أن نكشف عن تتابع تلك الأحداث، فلقد وُضع الخروج من مصر فى الزمن

١– من الواضح حقاً أننا ماسمعنا خلال آلاف السنين التى استغرقها التاريخ المصرى (القديم) عن انقلابات عنيفة أو اغتيالات للفراعنة. والمقارنة بالتاريخ الأشورى مثلا ينبغى أن تزيد دهشتنا. وربما كان السبب طبعاً أن التسجيل التاريخى للمصريين خدم الأغراض الرسمية وحدها لاغير. (فرويد)

الذى تلا زوال الأسرة الثامنة عشرة (سنة ١٣٥٠ق.م). وربما حدث حينئذ أو بعد ذلك بقليل، لأن المؤرخين المصريين أدرجوا السنوات التالية باعتبارها سنوات عمّتها الفوضى فى حكم حارمحب، الملك الذى أنهاها وحكم حتى سنة ١٣١٥ ق.م. والمساعدة الثانية لتحديد التاريخ - وهى الوحيدة - يقدمها لوح ميرنبتاح (١٢٢٥ - ١٢١٥ق.م) الذى يمجّد الانتصار على إسيراءال (إسرائيل) وتدمير محاصيلهم. ولسوء الحظ فإن أمر هذا اللوح مشكوك فيه، ويؤخذ كدليل على أن القبائل الإسرائيلية كانت قد استقرت فى ذلك الوقت فى كنعان[١]. ويستخلص مبير بحق من هذا اللوح[٢] أن ميرنبتاح لايمكن أن يكون هو فرعون الخروج كما كان يُفترض من قبل. وينبغى أن يكون الخروج قد حدث فى فترة أسبق، ويبدو لى سؤال «من كان فرعون فى وقت حدوث الخروج؟» سؤالا فارغاً، فلم يكن هناك فرعون فى ذلك الوقت، لأن الخروج حدث فى الفترة التى تخللت حكمين، ولكن لوح ميرنبتاح لايلقى بأى ضوء على التاريخ المحتمل للاندماج وقبول الديانة الجديدة فى قادش. وكل مانستطيع قوله فى يقين هو أنهما وقعا فى زمن معين بين سنة ١٣٥٠ وسنة ١٢١٥ ق.م. وخلال ذلك القرن فلنفرض أن الخروج كان قريباً جداً من التاريخ الأول وأن أحداث قادش لم تكن بعيدة عن التاريخ الثانى؛ ونفضل أن نستبقى الجزء الأكبر من الفترة للمرحلة التى تخللت الحدثين. ويلزم وقت طويل نسبياً لتبرد عواطف القبائل العائدة بعد مقتل موسى، ولكى يقوى نفوذ شعب موسى وهم اللاويون، كما يفرض ذلك سلفاً الالتقاء فى قادش. وقد يكفى انقضاء جيلين، أى ستين سنة، ولكنه بالتقريب فقط. والتاريخ المستخلص من لوح ميرنبتاح يقع فى وقت مبكر جداً، ولما كنا نعرف ذلك من فرضنا، فإن افتراضاً واحداً يقوم على افتراض آخر، وهو أننا مضطرون إلى الاعتراف بأن هذه المناقشة تفصح عن نقطة ضعيفة فى البناء. ولسوء الحظ فإن كل شئ مرتبط باستقرار الشعب اليهودى فى كنعان غامض ومشوش بدرجة عالية؛ وبالطبع قد نستخدم وسيلة افتراض أن الاسم فى لوح إسرائيل

١- مبير المرجع السابق ص ٢٢٢. (فرويد)

٢- يقول اللوح :«والأمراء منطرحون على الأرض يصيحون الرحمة، ولايرفع واحد رأسه من أهالى الأقواس التسعة. الخراب للتحنو. وبلاد خيتا قد أسكتت، ونهبت كنعان وأصابها كل شر، وسيقت عسقلان، وهجُم علَى جزر، وصارت ينعم (كبلد) لم يكن له وجود، وإسرائيل خُرِّبت. وزالت بذرتها، وأصبحت فلسطين أرملة لمصر، وجميع الأراضى أصبحت هادئة كلها، وكل من كان غير مستقر أصبح مرتبطا بمرنبتاح» (جون ويلسون : الحضارة المصرية ترجمة الدكتور أحمد فخرى). (الحفنى)

لايشير إلى القبائل التى نحاول تتبع مصيرها، والتى توّحدت فيما بعد فى شعب إسرائيل. فضلا عن أن اسم العابيرو Habiru (Hebrews عبرانيون) منذ عصر العمارنة انتقل كذلك إلى هذا الشعب.

وعندما كان يحدث أن قبائل مختلفة تتوحد فى أمة بتقبل نفس الديانة، فمن الجائز جداً أن لايكون الحدث على قدر عظيم من الأهمية بالنسبة لتاريخ العالم، ولكان من الممكن أن يكتسح سيل الأحداث الديانة الجديدة، ولكان يهوه قد اتخذ مكانه فى ركب الآلهة القديمة التى صورها فلوبير[1]، ولكان قد «فقد» شعبه بجميع قبائله الاثنتى عشرة، وليس فقط العَشْر قبائل التى ظل الأنجلو سكسون يبحثون عنها طوال تلك المدة. وربما لم يكن الإله يهوه كائناً عظيما بأى حال من الأحوال. فلقد كان إلها فظا، ضيق العقل، محلياً، عنيفاً ومتعطشاً للدماء، وكان قد وعد أتباعه أن يعطيهم «أرضاً تفيض لبنا وعسلاً»، وشجعهم على أن يخلصوا البلد من سكانه الحاليين «بحد السيف». ومن المدهش حقاً أنه رغم كل هذه المراجعات لنص التوراة فقد سُمح للكثير أن يبقى، وبه نتعرف على طبيعة هذا الإله الأصلية. وليس من المؤكد أن ديانته كانت ديانة توحيدية حقيقية، وأنها أنكرت الألوهية للمعبودات الأخرى. وربما كان يكفى أن الإله الذى تقول به هذه الديانة كان أكثر قوة من كل الآلهة الأجنبية. وعندما اتخذ تتابع الأحداث طريقاً آخر تماماً عما كانت مثل هذه البدايات تجعلنا نتوقع، فلا يمكن أن يكون هناك إلا سبب واحد لذلك. ولقد أعطى موسى المصرى لجزء واحد من الشعب المصرى تصوراً آخر أكثر روحية للإله، إله يحتوى كل العالم، إله هو كل الحب كما هو كل القوة، يبغض كل الطقوس والسحر، ويضع حياة ملؤها الحق والعدل كهدف أسمى للإنسانية. ورغم أن معلوماتنا ضئيلة عن الجانب الأخلاقى لديانة أتون، فإنه لأمر له دلالته أن أخناتون وصف نفسه فى نقوشه باعتباره «يعيش على الماعت» (الحق والعدل)[2] وعلى المدى الطويل، لم يكن يهم أن الشعب، ربما بعد زمن قصير

١- جوستاف فلوبير الكاتب الفرنسى، ولد فى روين (١٨٢١ - ١٨٨٠)، وهو مؤلف الرواية الشهيرة «مدام بوفارى» (١٨٥٧)، و«سالامبو» (١٨٨١)، وكان يهتم بالأسلوب كثيراً، كما كان يريد أن يقدم صورة للواقع ومع ذلك يضمنها سمات خيالية. (الحفنى)

٢- تؤكد أناشيده ليس فقط عالمية ووحدانية الإله، بل وعنايته المحبة لكل المخلوقات، وهى تدعو المؤمنين إلى اجتلاء الطبيعة ومافيها من جمال. «بريستيد : فجر الضمير». (فرويد)

جداً، نبذ تعاليم موسى وأزاح الرجل نفسه. ولكن التراث نفسه بقى ووصل تأثيره - ولو أنه ببطء، وفى خلال قرون - إلى الهدف الذى استُنكر على موسى نفسه، وحاز الإله يهوه شرفاً لم يكن يستحقه، ابتداء من قادش فما بعدها، عندما أضيف التحرير الذى قام به موسى لشعبه إلى حساب يهوه نفسه، ولكن كان عليه أن يدفع ثمناً غالياً لهذا الاغتصاب، فَظِل الإله الذى احتل مكانه صار أكبر منه، وفى نهاية التطور التاريخى ارتفع أعلى من كيانه كيان إله موسى المنسى. وليس بوسع أحد أن يشك أن فكرة هذا الإله وحدها هى التى مكّنت شعب إسرائيل من أن يتغلب على كل مصاعبه وأن يعيش حتى وقتنا.

ولم يعد فى الإمكان تحديد الدور الذى لعبه اللاويون فى الانتصار النهائى لإله موسى على يهوه. وعندما تحقق الالتقاء فى قادش رفعوا صوتهم مؤيدين موسى، فقد كانت ذاكرتهم ماتزال خضراء بسيدهم الذى كانوا هم أتباعه ومواطنيه. وخلال القرون منذ ذلك الوقت صار اللاويون واحداً مع الشعب أو مع كهنته، وصار العمل الأساسى للكهنة هو تطوير الطقوس والإشراف عليها، بالإضافة إلى العناية بالنصوص المقدسة ومراجعتها لتوافق أغراضهم. ولكن ألم تكن كل هذه التضحية والطقوس فى أعماقها مجرد سحر، وسحر أسود، من الطراز الذى أدانه المذهب القديم لموسى إدانة غير مشروطة؟ وقام من وسط الشعب تتابع لاينتهى من الرجال، لاينحدرون بالضرورة من شعب موسى، ولكنهم كانو مأخوذين بالتراث العظيم القوى، الذى نما تدريجيا فى الظلام. وكان أولئك الرجال، الأنبياء، هم الذين ثابروا على التبشير بمذهب موسى القديم : إن المعبود يزدرى التضحية والطقوس، ولايريد إلا الإيمان وحياة ملؤها الحقيقة والعدل (ماعت) - وحققت جهود الأنبياء نجاحاً ثابتاً، وصارت المذاهب التى أعادوا بها إقامةالعقيدة المضمون الدائم للديانة اليهودية. وإنه لشرف فيه الكفاية للشعب اليهودى أنه أبقى حياً تراثاً كهذا وأنتج رجالا أعطوه أصواتهم، حتى ولو كان الدافع قد أتى أول الأمر من خارج، من عظيم أجنبى[1].

وهذا الوصف للأحداث كان من الممكن أن يتركنى بشعور من الشك لو لم يكن بوسعى أن أشير إلى باحثين خبراء آخرين يرون أهمية موسى لتاريخ الديانة اليهودية فى نفس الضوء ولو أنهم لايقرون أصله المصرى[2]. ويقول سيلين مثلا[3]، «ومن ثم علينا أن نصور

١- وواضح هنا تباهى فرويد باليهودية وبُعده عن الموضوعية فى اعتقاده بأن هناك شعباً خالصاً هو الشعب اليهودى وحكمه على التراث بأنه عظيم وبأنه أنتج عظماء. (الحفنى)

٢- واضح هنا رغم مايسوقه فرويد من أسئلة تثير الشك فى أصل موسى عليه السلام أن هناك آخرين عرضت لهم نفس الأسئلة إلى نفس نهاياته، وهى نهايات كما رأينا متعسفة لأنه يتعسفها لتخدم غرضه وليست براهين علمية لحقائق موضوعية. (الحفنى)

٣- سيلين. المرجع السابق ص ٥٢.

الديانة الحقيقية لموسى والعقيدة التى أعلنها عن إله واحد أخلاقى باعتبارها من الآن فصاعدا، كأمر طبيعى، منحازة إلى دائرة صغيرة داخل الشعب. وليس بوسعنا أن نتوقع أن نجدها منذ البداية فى المذهب الرسمى، فى ديانة الكهنة، فى العقيدة العامة للشعب. وكل مابوسعنا أن نتوقعه هو، أنه هنا وهناك، تطير شرارة من النار الروحية التى أوقدها، وأن أفكاره لم تمت، ولكنها أثرت فى هدوء على المعتقدات والعادات، حتى تندفع مرة أخرى، إن آجلاً أو عاجلاً، تحت تأثير حوادث خاصة، أو من خلال شخصية ماغارقة بوجه خاص فى هذه العقيدة، شخصية أقوى، وتحرز السيطرة على الجماهير العريضة من الشعب. ومن هذه الزاوية ينبغى أن ننظر إلى التاريخ الدينى المبكر للإسرائيليين القدامى. ولو حاولنا أن نعيد بناء الديانة الموسوية على الطراز الذى وضع فى الوثائق التاريخية التى تصف ديانة الخمسة قرون الأولى فى كنعان، لوقعنا فى أسوأ الأخطاء المنهجية». ويعبر ڤولز[1] عن نفسه بوضوح أكثر ويقول «إن عمل موسى المحلق فى السماء كان يُفهم بصعوبة فى أول الأمر، وينفذ بضعف، حتى تخلل عبر القرون أكثر فأكثر فى روح الشعب، ووجد أخيراً أرواحاً من طرازه فى الأنبياء العظام الذين واصلوا عمل المؤسس الذى كان وحده».

وبهذا أصل إلى نهاية، فقد كان غرضى الوحيد أن أطابق صورة موسى المصرى داخل إطار التاريخ اليهودى، وربما أستطيع الآن أن أعبر عن خاتمتى بأقصر صيغة : إلى **الثنائية** المعروفة لذلك التاريخ - **شعبان اثنان** يندمجان مع بعضهما ليكوّنا أمة واحدة، **مملكتان اثنتان** تنقسم إليهما هذه الأمة، **اسمان اثنان** للمعبود فى مصدر التوراة - إلى هؤلاء نضيف اثنين جديدين : تأسيس ديانتين **اثنتين** جديدتين، الأولى تُنحّيها الثانية، ومع ذلك تعاود الأولى الظهور منتصرة؛ ونُضيف كذلك مؤسسين دينيين اثنيْن، يُسميَان بنفس الاسم، اسم موسى، وعلينا أن نفصل بين شخصيتيهما. وكل هذه الثنائيات نتائج ضرورية للنتيجة الأولى : أن قسماً من الشعب مرّ بما يمكن أن يسمى تسمية صحيحة تجربة أنوية Traumatic experience، أُعفى الآخر منها. ولايزال هناك الكثير لمناقشته ولشرحه ولتأكيده، فعندئذ فقط يمكن أن نضمن اهتماماً أكبر بدراستنا التاريخية المحضة : فماالذى تتكون منه بالضبط الطبيعة الباطنة للتراث، وماالذى تقوم

١- Paul Volz : Mose (Tubingen, 1907) p. 64

عليه قوته الخاصة، وكيفية استحالة إنكار الأثر الشخصى لأفراد الرجال العظام على تاريخ العالم، وأى تجديف نرتكبه ضد عظمة الحياة الإنسانية بتعدد أشكالها إذا سلّمنا بأن دوافعها الوحيدة هى الدوافع التى تمليها الحاجات المادية، ومن أى المصادر تستمد بعض الأفكار، وخاصة الأفكار الدينية، القوة التى تُخضِع بها الأفراد والشعوب - ودراسة كل ذلك فى الحالة الخاصة للتاريخ اليهودى عمل مُغر. ومِثْل هذا الاستمرار فى مقالى سيرتبط بنتائج وضعتها منذ خمس وعشرين سنة فى بحثى (الطوطم والمحرم Totem and Taboo)، ولكنى لاأثق فى قواى أكثر من ذلك إلا بمشقة.

✠ ✠ ✠